صفحة ١٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

# الامثال والعرش العظيم
## فى القرآن والسنه

رمزى محمود ابراهيم

## الفهرس

(١)

### الباب الاول

### ( الامثال )

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

# الباب الاول

## الامثال

﴿ لقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل وكان الانسان اكثر شيء جدلاً ﴾ الكهف : ٥٤

# الفصل الأول
## تعاقب الرسل وتواترهم

من نعم الله على البشر أن أرسل اليهم الرسل عبر التاريخ الانساني متعاقبين ، ومتواترين ، يحملون رسالة الاسلام ، ويذكرونهم بدينهم قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ..

﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما . ﴾(١)

لقد بعثهم الله - تعالى - ليقطع حجة من يقول لو أرسل الىّ رسول لآمنت وأطعت ، فقطع الله حجة البشر بأرسال الرسل يبشرون بالجنة من أطاع وينذرون بالنار من عصى .

ومن ذلك لم يؤمن بالرسل إلا القليل من بني آدم ، بل وممن آمن بالرسل من غيروا وبدلوا في دينهم ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم ، وأشركوا مع الله آلهة أخرى تسوّل لهم خيالاتهم .. قال تعالى :

﴿ ولا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . ﴾(٢)

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يقول الله أنا اغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا اشرك فيه معي غيري تركته وشركه . ﴾(٣)

وذكر الله تواتر الرسل وتعاقبهم ، وما لاقوه من أقوامهم ، وما فعل الله بالمكذبين في قوله تعالى :

(١) ﴿ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم أعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون . ﴾(٤)

---

(١) النساء : ١٦٥ (٢) يوسف : ١٠٦ (٣) رواه مسلم (٤) المؤمنون : ٢٣

﴿ قال إن قومي كذبون. فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين . فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا الباقين .﴾[1]

(٢)- ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن أعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون .﴾[2]

ولقد كان هذا القرن يشمل عادا قوم هود ، وثمود قوم صالح .. أما عاد فقد قال لهم اخوهم هود :

﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم وأذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطه فأذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون .﴾[3]

قال تعالى :

﴿ ~~كذبوهم~~ فكذبوه فأهلكناهم .... ﴾[4]

أما ثمود فقد قال لهم اخوهم صالح :... ﴿.... قال يا قوم أعبدوا الله مالكم من اله غيره ... ﴾[5]

﴿ وأذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد ~~نوح~~ عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فأذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين .﴾[6]

﴿ فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .﴾[7]

(٣)- قال تعالى :

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون . ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون . ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . الى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون . فكذبوهما فكانوا من المهلكين . ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون .﴾[8]

---

(١) الشعراء : ١١٧-١٢٠ (٢) المؤمنون : ٣١-٣٢ (٣) الاعراف : ٦٩ (٤) الشعراء : ١٣٩
(٥) الاعراف : ٧٣ (٦) الاعراف : ٧٤ (٧) الذاريات : ٤٤ (٨) المؤمنون : ٤٢-٤٩

(٤)- قال تعالى :

﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم أثنى عشر نقيبا وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل . فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسيه يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولاتزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فأعف عنهم وأصفح إن الله يحب المحسنين .﴾[١]

(٥)- قال تعالى :

-﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراه وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراه وهدى وموعظه للمتقين .﴾[٢]

-﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾[٣]

﴿ أتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا الها واحدا لا اله إلا هو سبحانه عما يشركون .﴾[٤]

(٦)- قال تعالى :

﴿ لقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون .﴾[٥]

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم .﴾[٦]

---

(١)- المائدة : ١٢-١٣ (٢) المائدة : ٤٦ (٣) المائدة : ١٤ (٤) التوبة : ٣١

(٥) القصص : ٥١ (٦) المائدة : ١٥-١٦

(٧) - لقد نزل القرآن على الرسول الكريم حاملا رسالة الاسلام ، فكان أول من آمن به .. وهو قوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه .﴾[1]

وطبيعي أن يؤمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ، قبل أن يدعو الناس الى الايمان به ، ولهذا أمره الله تعالى أن يؤمن بالاسلام أولا ، ثم يدعوا الناس بعد ذلك أن يسلموا ..

* * * *

وكان مقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة منذ أن بُعث الى أن هاجر ثلاث عشر سنة ، لقي فيهن من الجهد ما لقي ، وصبر فيهن على الجهد ما صبر ، وتأسى به أصحابه ما استطاعوا الى التأسي به سبيلا ، وأنزل فيهن عليه من القرآن شئ كثير .

كان في مكة يدعو الى التوحيد ، وينهى عن الشرك ، ويأمر بالعدل وينهى عن الجور ، ويجهر بأن الناس جميعا سواء عند الله لا يمتاز بعضهم من بعض إلا بالبر والتقوى ، كما كان يحذر الذين يشركون بالله ويجعلون له أندادا عذابا شديدا بعد الموت ، وينبئ بأن لهذه الدنيا نهاية لا بد من أن تبلغها يوم تقوم الساعة .

وكان يهول من أمر الساعة هذه تهويلا شديدا ، تنخلع له القلوب ، وينبئ بقربها وبأنها تفجأ الناس على حين غفلة ، فتذهل الآباء والامهات عن أبنائهم ، وتنسى الانسان كل شئ إلا نفسه ، ويضطرب لها الكون اضطرابا اى اضطراب ، فالسماء منفطره ، والكواكب منتثره ، والبحور مفجره ، والقبور مبعثرة ، ويومئذ تعلم كل نفس ما قدمت من عمل وما أخرت .

وعلى هذا النحو كان يهول من أمر الساعة وما يكون بعدها من حساب الناس على ما قدموا وما أخروا من اعمالهم ، وقد سجل كل عمل أتاه الانسان في كتاب ينشر

---

(١) البقرة : ٢٨٥

أمامه ، يحصى له حسناته وسيئاته ، والنار معروضة عليه ، والجنة مزلفة له ، فهو يرى الجحيم كأبشع مايكون ، ويرى النعيم كأروع مايكون .. يتمنى هذا ويشفق من ذاك ، وكل كتابه قد نشر بين يديه يحكم له بالنعيم أو يحكم عليه بالجحيم ، لا يظلم مثقال ذرة مما عمل .

فالانسان على نفسه بصيرة وإن ألقى معاذيره ، ويومئذ يروع الكافرون حين يرون الكتاب منشورا ، فيقولون :

﴿ ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا . ﴾

فإذا قضى بين الناس بمقدار أعمالهم ذهب أصحاب النعيم الى نعيمهم خالدين فيه أبدا ، وذهب أصحاب الجحيم الى جحيمهم خالدين فيه أبدا ان كانوا مشركين بالله لا يخلصون له قلوبهم ولا نفوسهم ولا ضمائرهم ، وماكثين فيه دهرا يقصر أو يطول لا يقاس ذلك إلا بعفو الله عن الذين أذنبوا واقترفوا السيئات بعد أن آمنوا .

* * * *

وكان العتاة والجبارون من أشراف قريش وأصحاب الرأى فيها ، ربما سخروا من النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان يتلو عليهم من القرآن ما يرد على سخريتهم .

وكان ينبئهم بأنه لا يأتيهم بآية إلا هذا القرآن الذى يتلوه عليهم ، والذى جاءه من عند ربه ، ويتحداهم هو فيسألهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وكان عجزهم عن أن يأتوا بمثله ، هو الدليل على أنه ليس من كلام الناس ، وإنما هو من كلام الله الذى لا سبيل الى تقليده ، ولا الى محاكاته ، فضلا عن الاتيان بمثل ما يأتى به .

وكان يتلو عليهم فيما يتلو هذه الآية من سورة الاسراء :

﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ﴾

وكانوا لايفهمون ولا تسيغ عقولهم أن تتصل الاسباب بين الله وبين واحد من الناس يوحى اليه هذا الكلام الذى كان يتلوه عليهم، ويتحداهم به ويسألهم أن يأتوا بمثله.

فيطلبون اليه آيات تكرههم على أن يؤمنوا له، ويسألونه أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا أو أن ينشئ لنفسه جنة من نخيل وعنب فيفجر الانهار خلالها تفجيرا أو يسقط السماء عليهم كسفا أو يأتي بالله والملائكة قبيلا أو يبتكر لنفسه بيتا من زخرف أو يرقى فى السماء فيأتيهم منها بكتاب يقرءونه..

فكان الله يأمره بأن يجيب على هذا التحدى، بهذه الجملة الجليلة الرائعة:

﴿سبحان ربى هل كنت الابشرا رسولا.﴾

هكذا كان كفار قريش والمشركين.. فقد استبدلوا الكفر بالايمان، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهدى فما ربحت تجارتهم فى صفقتهم هذه، وما كانوا راشدين فى هذا، لأنهم خسروا سعادة الدارين..

وصدق الله العظيم حين قال:

﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم.﴾(١)

والمعنى إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم، سواء عليهم حذرهم نبى الله وخوفهم من الله أم لم يحذرهم، فيتساوى عندهم هذا وذاك.

ولهذا طبع الله على قلوبهم فلا يدخل فيها نور الايمان، فالقلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها، فلا يكون للايمان اليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص.. كما قال الله تعالى: ﴿بل طبع الله عليهم بكفرهم.﴾(٢)

(١) البقرة: ٦-٧ (٢) صفوة التفاسير جـ١ صـ٣٢.

## الفصل الثاني
## أمثال المنافقين والذين كفروا

لقد بين الله سبحانه وتعالى في القرآن العظيم، ما يحتاج الناس إليه من المواعظ والحكم والأخبار والعبر، ما يوضح الحق ويزيل اللبس، فبين الحق وضرب لهم الأمثال، ليستبينوا الحق ويتبعوه..

فالغاية من ضرب الأمثال هو تقريب البعيد عن الذهن، وتوضيح الغامض من الأوامر والأحداث والشرائع، حتى يصبح كالأمر المشاهد والمحسوس، وللأمثال تأثير عجيب قوي في النفس البشرية.

ويقول تعالى:

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[١]

(١)- ﴿ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾[٢]

ويقول تعالى:

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون . ﴾[٣]

يخبر الله تعالى أنه بين في هذا القرآن ما يحتاج الناس إليه من المواعظ والأمثال والأخبار والعبر ما يوضح الحق، ويقسم الله تعالى بذاته لرسولنا صلى الله عليه وسلم، ووالله لئن جئتهم يا محمد بما اقترحوا من الآيات كالعصا والناقة واليد، ليقولن المشركون من قومك لفرط عنادهم، ما أنت وأصحابك إلا قوم مبطلون تدجلون علينا وتكذبون..(٤)

(١) العنكبوت: ٤٣ (٢) الروم: ٥٨ (٣) الروم: ٥٨-٦٠ (٤) صفوة التفاسير ج٢ ص٤٨٤

﴿ كذلك طبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ أي مثل ذلك الطبع على قلوب الجهلة المجرمين ، فيختم الله على قلوبهم ذلك لأنهم لا يعلمون توحيد الله ولا صفاته.

ويقول تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم : ﴿ فاصبر ان وعد الله حق ﴾ اي فاصبر يا محمد على تكذيبهم وأذاهم ، فإن وعد الله بنصرك وإظهار دين الله حق لابد من إنجازه ، فلا يحملك على الخفة والقلق جزعا مما يقوله أمثال أولئك الضالون الشاكون ، ولا تترك الصبر بسبب تكذيبهم وإيذائهم ..(١)

(٢)- ان المنافقين ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ﴾

لقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز ، ان مثل المنافقين في نفاقهم وحالتهم العجيبة فيه ، كحال شخص أوقد نارا ليستدفئ بها ويستضيئ ، فما اتقدت حتى انطفأت وتركته في ظلام دامس وخوف شديد ، فلما أنارت المكان الذي حوله فأبصر وأمن واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة ، ذهب الله بنوره وأطفأها بالكلية ، فتلاشت النار وعدم النور.

(١) صفوة التفاسير ج٢ ص٤٨٤

وأبقاهم في ظلمات كثيفة وخوف شديد ، يتخبطون فلا يهتدون .

وقال ابن كثير[1] :

" ضرب الله للمنافقين هذا المثل ، فشبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة الى العمى ، بمن أستوقد نارا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله ، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، فكذلك هؤلاء المنافقون في أستبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى ، وأستحبابهم الغي على الرشد ...

وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون الى سبيل خير ، ولا يعرفون طريق النجاة ".

" فهم كالصم لا يسمعون خيرا ، وكالخرس ~~لا يسمعون~~ لا يتكلمون بما ينفعهم ، وكالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله .. فهم لا يرجعون عما هم فيه من الغي والضلال "[2]

ولذلك قال الله فيهم :

﴿ أولئك الذين أشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي أستوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون . ﴾[3]

* * * *

---

(١) مختصر ابن كثير ٣٩/١ (٢) صفوة التفاسير جـ١ ص٣٧ (٣) البقرة : ١٦ - ١٨

(٢) - ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق...﴾

أما المثل الثاني الذي ضربه الله للذين كفروا ففي قوله تعالى:

﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾[1]

ولقد أخبر الله تعالى بتمثيل آخر لهم زيادة في الكشف والإيضاح ، فمثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد ، أظلمت له الأرض ، وأرعدت له السماء مصحوب بالبرق والرعد والصواعق ، وفي هذا السحاب ظلمات داجيه ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف ..

فما كان منهم إلا أن وضعوا رؤوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق ، وذلك من فرط الدهشة والفزع ، كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم ، لأنهم يخشون الموت من تلك الصواعق المدمرة ..

ولكن الله - تعالى - محيط بهم بقدرته ، وهم تحت إرادته ومشيئته ، كما أن البرق يكاد لشدته وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم ، فكلما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه ، وإذا أختفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير ، وثبتوا في مكانهم ..

وفي هذا تصوير لما هم فيه من غاية التحير والجهل ، فإذا صادفوا من البرق لمعه - مع خوفهم أن يخطف أبصارهم - أنتهزوا فرصه فخطوا خطوات يسيره ، وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير ، وثبتوا في أماكنهم خشيه التردي في حفرة ..

ولو أراد الله - سبحانه - لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم ، وفي ضوء البرق فأعماهم وذهب بأبصارهم ، وهو تعالى قادر على كل شيء ، لا يعجزه أمر في الأرض ولا في السماء .

---

(١) البقرة : ١٩-٢٠

ولقد شبه الله تعالى في المثال الأول : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ﴾ المنافق بالمستوقد للنار، واظهار الإيمان بالإضاءة، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار..

وفي المثال الثاني ..: ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ﴾ شبه الإسلام بالمطر لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء، وشبه شبهات الكفار بالظلمات وما في القرآن من الوعد والوعيد بالرعد والبرق..

وقال الفخر الرازي[1] :

والتشبيه هاهنا في غاية الصحة، لأنهم بإيمانهم أولا اكتسبوا نورا، ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة عظيمة، لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين، خسران نفسه أبد الآبدين.

— ألم يسمع أولئك الكفرة بقول الله تعالى :

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . فذكر إنما أنت مذكر . ﴾[2]

فهذه مخلوقات الله -تعالى- الدالة على قدرته وعظمته، فإبل خلق عجيب، وتركيبه غريب، فهي في غاية القوة والشدة، ومع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، كما أنه تؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها..

ولقد نبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم الإبل..، وكان "شريح القاضي" يقول أخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت؟ وإلى السماء كيف رفعت؟ أي كيف رفعها الله تعالى هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى :

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . ﴾[3]

---

(1) الرازي : ٢/٧٣ (2) الغاشية : ١٧-٢١ (3) ق : ٦

وتلك الجبال المنصوبة ، فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن ..

كذلك الأرض ، كيف بسطت ومدت ومهدت ؟

هكذا نبه الله تعالى العربي البدوي ، بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه والسماء التي فوق رأسه ، والجبل الذي تجاهه ، والأرض التي تحته ، على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف ، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه ..(١)

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ صـ٥٠٥ - طبعة دار الريان للتراث ١٩٨٨م

(٤) قدح الكفار فى القرآن :

بين الله - تعالى - فى القرآن الكريم ، أن القرآن كلام الله لا يطرأ اليه شك ، وأنه كتاب معجز أنزله على خاتم النبيين ، وتحدى الكفار أن يأتوا بمثل سورة من أقصر سوره ..

ولكن الذين كفروا أرادوا القدح فى القرآن الكريم ، نظرا لأنه قد جاء فى القرآن ذكر ( النحل ، والذباب ، والعنكبوت ، والنمل .) الخ .. وقالوا أن هذه الامور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فضلا عن كلام رب الأرباب ، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة ، ورد عليهم بأن صغر هذه الاشياء لا يقدح فى فصاحة القرآن وأعجازه ، إذا كان ذكر المثل مشتمل على حكم بالغة .

فقال تعالى :

﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين .﴾[1]

وقال بعض المفسرين[2] :

لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت فى كتابه ، وضرب للمشركين به المثل ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ، وما أراد بمثل هذه الاشياء الخسيسة ؟ فأنزل الله الآية ...

يقول الله تعالى فى الرد على مزاعم اليهود والمنافقين ﴿ ان الله لا يستحى أن يضرب مثلاما ﴾ اى أن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب اى مثل كان ، صغيرا كان أو كبيرا ..

(١) البقرة : ٢٦ (٢) القرطبى جـ ١ صـ ٢٤٤ ، والصاوى جـ ١ صـ ١٧

وقال الزمخشري (١):

إن الله لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحي من ذكرها لحقارتها

فالله لا يستنكف بضرب المثل بالبعوضة أو بما هو دونها من الحقارة والصغر ، فكما لا يستنكف عن خلقها ..

فأما المؤمنون فيعلمون أن الله حق ، لا يقول غير الحق ، وأن هذا المثل من عند الله ، وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون : ماذا أراد الله من ضرب الامثال بمثل هذه الاشياء الحقيرة ؟

فرد عليهم الله تعالى أنه يضل بهذا المثل كثيرا من الكافرين لكفرهم به ، ويهدي به كثيرا من المؤمنين لتصديقهم به ، فيزيد أولئك ضلالة ، وهؤلاء هدى . وما يضل بهذا المثل أو هذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله ، الجاحدين بآياته .

ثم عدد الله تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين فقال :

﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون . ﴾ (٢)

فهم الذين ينقضون ما عهده اليهم في الكتب السماوية ، من الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم من بعد توكيده عليهم أو ينقضون كل عهد وميثاق من الايمان بالله ، والتصديق بالرسل ، والعمل بالشرائع ..

﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ من صلة الأرحام والقرابات ..

( ويفسدون في الأرض ) بالمعاصي والفتن ، والمنع عن الايمان ، وأثارة الشبهات حول القرآن ، فأولئك الموصوفون بتلك الاوصاف القبيحة هم الخاسرون ، لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فصاروا الى النار المؤبدة .. (٣)

---

(١) الكشاف ج١ ص٨٥ (٢) البقرة : ٢٧ (٣) صفوة التفاسير : ج١ ص٤٥ تأليف محمد علي الصابوني طبع دار القلم بيروت .

(٥)- مثل الكفار كالدواب السارحة لايفهمون :-

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتلو القرآن على قريش فيسمعون أحيانا ، ويجادلون ويعرضون أحيانا ، ويأبون أن يسمعوا ويعقلوا .. .

كان يتلو عليهم من القرآن خلق آدم وإسكانه هو وامرأته الجنة ، ونهيه إياهما أن يقربا الشجرة المحرمة ، وإغواء الشيطان لهما بالمعصية وأخراجهما من الجنة ،

ويقص عليهم كذلك من أخبار السماء ما كان من مجاهرة أبليس بالمعصية وإبائه أن يسجد أعظاما لخلق آدم كما سجدت الملائكة ، وما حل به من غضب الله عليه ، وما زعم من أنه سيفسد ولد آدم ويستحملهم على المعصية ..

وأشياء أخرى كثيرة كان يقصها عليهم يعظهم بها لعلهم أن يهتدوا ، فلا يحفلون بشئ مما يسمعون .

ويقول تعالى :

﴿ وإذا قيل لهم أتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون . ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون .﴾[1]

ويخبر الله تعالى إنه إذا قيل للمشركين أتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحى والقرآن وأتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ، قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا فقال تعالى فى الرد عليهم .. : ﴿ أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ .

أيتبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق ؟ ..

ثم ضرب تعالى مثلا للكافرين ، ممثلهم فى عدم أنتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة

---

(١) البقرة : ١٧٠-١٧١

كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها، فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام والمراد، أو تدرك المعنى الذي يقال لها..

فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم اليه ولا يفقهون، يسمعون القرآن ويصمون عنه الآذان.. ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا.﴾، فهم صم عن سماع الحق، خرس عن النطق به، عمي عن رؤيته، فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالدواب، فهم في ضلالهم يتخبطون..

وخلاصة المثل.. مثل الذين كفروا كالبهائم لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من سماع الصوت دون أن تفهم المعنى.. وهو خلاصة قول ابن عباس.

وقال ابن القيم في "اعلام الموقعين" عن قوله تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء.﴾

قال: لك أن تجعل هذا من التشبيه المركب، وان تجعله من التشبيه المفرق، فإن جعلته من المركب كان تشبيها للكفار - في عدم فقههم وانتفاعهم - بالغنم التي ينعق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئا غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء، وإن جعلته من التشبيه المفرد: فالذين كفروا بمنزلة البهائم، ودعاء داعيهم الى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها، ودعاؤهم الى الهدى بمنزلة النعق، وادراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق والله أعلم..

(٦) المنافق الذي ينفق ماله رئاء الناس كمثل صفوان عليه تراب ...

يخبر تعالى المؤمنين أن رد السائل بالتي هي أحسن ، والصفح عن الحاجة .. خير عند الله وأفضل من اعطائه ثم إيذائه ، أو تعييره بذل السؤال - فلا تحبطوا أجر صدقاتكم بالمن والأذى ..

كالمرائي الذي يبطل أنفاقه بالرياء ، ولا يقصد بلقاء الله تعالى ، ليرجو ثوابا أو يخشى عقابا .. فمثل هذا المرائي بأنفاقه ، لمثل الحجر الاملس الذي عليه شئ من التراب يظنه الظان أرضا طيبة منبتة ، فإذا أصابه مطر شديد أو ذهب عنه التراب، فيبقى صلدا أملس ليس عليه شئ من الغبار أصلا ..

كذلك المنافق يظن ان له اعمالا صالحة ، فإذا كان يوم القيامة أضمحلت وذهبت ، فلا يجدون له ثوابا في الآخرة ، فلا ينتفع بشئ منها أصلا ..[1]

ويضرب الله الامثال .. فيقول تعالى :

﴿ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم • يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين .﴾[2]

(٧) من عمل بالمعاصي حتى أغرقت أعماله :

قال تعالى :

﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون .﴾[3]

(١) صفوة التفاسير ج١ ص١٦٩ (٢) البقرة : ٢٦٢-٢٦٤ (٣) البقرة : ٢٦٦

قال عمر بن الخطاب يوما لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم :

ـ فيمن ترون هذه الآية نزلت .. ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة ﴾ .

قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر وقال : قولوا نعلم أو لا نعلم ..

فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ..

قال عمر : يا ابن أخي ، قل ولا تحقر نفسك

فقال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل رجل غني يعمل بطاعة الله ، ثم بعث له الشيطان ، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله .(١)

(١) أخرجه البخاري .

وقال الحسن البصري :

هذا مثل قل والله من يعقله : شيخ كبير ، ضعيف جسمه ، وكثير صبيانه ، أفقر ما كان الى جنته ، فجاءها الاعصار فأحرقها ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون الى عمله إذا انقطعت الدنيا عنه .

ويقول تعالى : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وعنب ﴾

أى أيحب أحدكم أن تكون له حديقة غناء فيها من أنواع النخيل والاعناب والثمار الشيء الكثير ، وتجرى الانهار من تحت أشجارها ، ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج ، وقد أصابته الشيخوخة ، فضعف عن الكسب وله أولاد صغار لا يقدرون على الكسب ..

ثم أصاب تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار ، فأحرقت الثمار والاشجار أحوج ما يكون الانسان اليها ..

ومثل هذا البيان الواضح فى هذا المثل الرائع المحكم ، يبين الله لكم آياته لكى تتفكروا وتتدبروا فيها من العبر والعظات [١]

(٨) مثل ما ينفقه الكفار كمثل ريح فيها صر أصابت الحرث فأهلكته :

لقد أخبر الله تعالى أن من أهل الكتاب طائفة مستقيمة على دين الله ، يتهجدون فى الليل بتلاوة القرآن حال الصلاة ، ويؤمنون بالله على الوجه الصحيح ، ويدعون الى الخير وينهون عن الشر ولا يداهنون ..

وهم يعملون مبادرين غير متثاقلين ، وهم فى زمرة عباد الله الصالحين ، فما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله ، والله لا يخفى عليه عمل ، ولا يضيع لديه أجر المتقين .

---

(١) صفوة التفاسير جـ ٢ ص ١٧

ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين ، فلن تدفع عنهم أموالهم التي تركلوا عليها وعلى أقتنائها ، ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم .. من عذاب الله شيئا ، فهم مخلدون في عذاب جهنم ..

فمثل ما ينفقون في الدنيا بقصد الثناء وحسن الذكر ، كمثل ريح عاصف فيها برد شديد ، أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالمعاصي ، فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به .. فكذلك الكفار ، يمحق الله أعمالهم الصالحة ، كما يذهب هذا الزرع بذنوب أصحابه ..

وما ظلمهم الله تعالى بأهلاك حرثهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بأرتكاب ما يستوجب العقاب ..

هكذا شبه الله تعالى ما كانوا ينفقونه في المفاخر وكسب الثناء ، بالزرع الذي أصابته الريح العاصفة الباردة ، فدمرته وجعلته حطاما ..

وصدق الله العظيم حين قال :

﴿ ليسوا سواء من اهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون • يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات أولئك من الصالحين • وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين • ان الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون • مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون . ﴾[1]

(1) آل عمران : ١١٢ – ١١٧

٩) المؤمن الذى له نور ، والكافر المتخبط فى الظلمات :

وضرب الله تعالى مثلا للمؤمن الذى كان ميتا ، اى فى الضلاله ، هالكا حائرا ، فأحياه الله واحيا قلبه بالايمان وهداه له ، ووفقه لاتباع رسله ﴿ وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ﴾ اى يهتدى كيف يسلك وكيف يتصرف به ، والنور هو القرآن الكريم كما روى عن أبن عباس (١)

﴿ كمن مثله فى الظلمات ﴾ اى الجهالات والاهواء والضلالات المتفرقه ، فلا يهتدى الى منفذ ولا مخلص مما هو فيه .

وفى مسند الامام أحمد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

﴿ إن الله خلق خلقه فى ظلمه ، ثم رش عليهم من نوره ، فمن أصاب ذلك النور أهتدى ، ومن اخطأه ضل . ﴾

وقال تعالى :

﴿ وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الاحياء ولا الاموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور . إن أنت إلا نذير . ﴾

وصدق الله تعالى حين قال :

﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . ﴾(١)

وقال ابو حيان : لقد مثّل تعالى بأن شبه المؤمن بالحى الذى له نور يتصرف به كيفما يشاء ان يسلك ، والكافر بالتخبط فى الظلمات المستقر فيها ليظهر الفرق بين الفريقين (٢)

---

(١) أبن كثير ج٢ ص١٦٤
(٢) الانعام : ١٢٢
(٣) البحر المحيط : ٤ / ٢١٤

(١١) مثل الكلب يلهث كمثل لكل من كذب بآيات الله :

ففى زمن موسى عليه السلام ، كان ضالاً عالم علمه الله تعالى بعض كتبه ، فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها ، بأن كفر بها وأعرض عنها .. فلحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله فى زمرة الضالين الراسخين فى الغواية بعد أن كان من المهتدين ..

ويقول ابن عباس :

هو ( بلعم بن باعوراء ) كان عنده اسم الله الأعظم ..

وقال ابن مسعود :

هو رجل من بنى اسرائيل بعثه موسى الى ملك ( مَدْيَنَ ) داعياً الى الله ، فرشاه الملك ، واعطاه الملك على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ، ففعل واضل الناس بذلك (١)

ولو شاء الله تعالى لرفعه الى منزل العلماء الابرار ، ولكنه مال الى الدنيا وسكن اليها ، وآثر لذاتها وشهواتها على الآخرة ، واتبع ما تهواه نفسه فأخلد الى اسفل سافلين ..

﴿ فمثله مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ ، اى فمثله فى الخسة والدناءة كمثل الكلب ان طردته وزجرته سعى لاهثاً ، وان تركته على حاله لهث .

وهذا المثل السيئ هو مثل لكل من كذب بآيات الله ، وفيه تعريض لليهود فقد أتوا التوراة ، وعرفوا صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة . فبئس مثلاً مثل القوم المكذبين بآيات الله (٢)

(١) التسهيل ١ ٢/٥٤ (٢) صفوة التفاسير ج٩ ص٤٨٢

وصدق الله العظيم حين قال :

﴿ وأتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض وأتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ﴾[1]

(1) الأعراف : ١٧٤-١٧٦

**(١١) مثل أعمال الكفار كمثل رماد اشتدت به الريح العاصفة :**

وضرب الله مثلا لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها ..

فمثل أعمالهم يوم القيامة يوم الحساب ، إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى ، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شئ ، فلم يجدوا شيئا ، ولا ألفوا حاصلا ، إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة فى يوم ذى ريح شديدة عاصفة قويه ، فلم يقدروا على شئ من أعمالهم التى كسبوها فى الدنيا ، إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم .(١)

فمثل أعمال الكفار التى عملوها فى الدنيا يبغون بها الأجر من صدقة وصلة رحم وغيرها ، مثل رماد عصفت به الريح فجعلته هباءً منثورا ، فى يوم شديد هبوب الريح .. (٢)

قال القرطبى :

ضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفار فى أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد فى يوم عاصف ، لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى ..(٣)

فكذا لا يقدر الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا من البر فى الدنيا ، لإحباطه بالكفر ، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شئ من الرماد الذى طيرته الرياح ، ذلك هو الخسران الكبير .(٤)

وصدق الله العظيم حين قال :

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد ﴾(٥)

---

(١) ابن كثير جـ٢ صـ٥٠٨ (٢) صفوة التفاسير جـ١٣ صـ٩٤ (٣) القرطبى : ٩/٢٥٢

(٤) صفوة التفاسير جـ١٣ صـ٥٠٩ (٥) ابراهيم : ١٨

(١٢) ـ مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة :

يقول تعالى :

﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض ومالها من قرار ﴾[1]

أي ومثل شجرة خبيثة كشجرة الحنظل الخبيثة ، أستؤصلت من جذورها وأقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها ، فليس لها أستقرار وثبات ..

كذلك كلمة الخبث لاثبات لها ولافرع ولابركة ..

قال أبن الجوزي :

شبه مايكسبه المؤمن .. في قوله تعالى ﴿ كلمة طيبة كشجرة طيبة .... ﴾ من بركة الايمان وثوابه في كل وقت ، بثمرتها المجتباه في كل حين ، فالمؤمن كلما قال ( لا اله الا الله ) صعدت الى السماء ثم جاء خيرها ومنفعتها ) .. والكافر لايقبل عمله ولايصعد الى الله تعالى ، لأنه ليس له أصل في الأرض ثابت ، ولا فرع في السماء .[2]

وعن أنس بن مالك ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال .. ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ هي الحنظلة [3]

وقال أبن كثير[4] :

هذا مثل الكافر لا أصل له ولاثبات ، مشبه بشجرة الحنظل ، ويقال لها الشريان .

(١) ابراهيم : ٢٦ (٢) زاد المسير : ٢٦/٤ (٤) أبن كثير ج٢ ص٥١٩

(٣) رواه أبن جرير . مذكور في تفسير أبن كثير ج٢ ص٥١٩

(١٣) - ولله المثل الأعلى :

ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا الى الله تعالى البنات وجعلوا لهم البنين ، تنزّه الله وتعظم عن هذا الإفك والبهتان ..

يجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين مع كراهتهم أنهم يأنفون من البنات ، وإذ أُخبر احدهم بولادة بنت صار وجهه متغيرا من الغم والحزن ..

قال القرطبي : هو كناية عن الغم والحزن وليس يراد سواد الوجه كما جاء في الآية الكريمة ، والعرب تقول لكل من لقى مكروها .. قد أسود وجهه [١]

وأمتلأ وجهه غيظا وغما ، يختفي من قومه خوفا من العار الذي يلحقه بسبب البنت كأنها بلية وليست هبة الهية ..

ثم يفكر فيما يصنع ، أيمسك هذه الأنثى على ذل وهوان ، أم يدفنها في التراب حية ..

ساء صنيعهم ، وساء حكمهم ، حيث نسبوا لخالقهم البنات - وهي عندهم بتلك الدرجة من الذل والحقارة - وأضافوا البنين اليهم ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..

فلهؤلاء الذين لم يصدقوا بالآخرة ، ونسبوا لله البنات سفها وجهلا ، صفة السوء القبيحة التي هي كالمثل في القبح ، فالنقص إنما ينسب اليهم لا الى الله ولله جل وعلا الوصف العالي الشأن ، والكمال المطلق ، والتنزه عن صفات المخلوقين .. وهو العزيز في ملكه ، الحكيم في تدبيره [٢]

ويقول تعالى :

﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون • واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم • يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون

(١) القرطبي : ١٠/ ١١٦ (٢) صفوة التفاسير جـ١٤ صـ١٣١

أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون . للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾(١)

يخبر الله تعالى فى كتابه العزيز عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم ، وجعلوا للأوثان نصيبا مما رزقهم الله .. فقالوا :
-﴿ هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون .﴾-

هكذا جعلوا لآلهتهم نصيبا مع الله وفضلوها على جانبه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذى أفتروه وأئتفكوه ، وليقابلنهم عليه ، وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم .. فقال :
﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون .﴾

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثا وجعلوها بنات الله معبودها معه ، فأخطأوا خطأ كبيرا فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث ..
فقد نسبوا اليه تعالى أن له ولدا ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم .. كما قال :
﴿ ألكم الذكر وله الانثى ؟ تلك إذا قسمة ضيزى .﴾

﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ اى عن قولهم وإفكهم ..
﴿ ألا أنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين؟ ما لكم كيف تحكمون ﴾

(١) النحل : ٥٧-٦٠

وهكذا يختارون لأنفسهم الذكور، ويأنفون لأنفسهم من البنات التى نسبوها الى الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ..

فإنه .. : ﴿ اذ بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا . ﴾ اى كئيبا من الهم، وهو ساكت من شدة ماهو فيه من الحزن، ويكره أن يراه الناس، فإن أبقاها .. ابقاها مهانة لا يعتنى بها ويفضل أولاده الذكور عليها، ام يئدها وهو أن يدفنها حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهية ويأنفون لأنفسهم عنه .. يجعلونه لله ؟ ..

بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه اليه .. كقوله تعالى:
﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم ﴾

﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ اى النقص إنما ينسب اليهم،
﴿ ولله المثل الاعلى ﴾ اى الكمال المطلق من كل وجه ﴿ وهو العزيز الحكيم . ﴾ (١)

## (١٤) - أهل مكة الذين بدلوا بأمنهم جوعا وخوفا :

قال تعالى :

﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون . ﴾ (٢)

هذا مثل أريد به أهل مكة، فقد كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمنا لا يخاف، وكان يأتيها رزقها هنيئا سهلا من كل مكان، فكفرت وجحدت آلاء الله عليها، وأعظمها بعثة تعالى محمد صلى الله عليه وسلم اليهم ..

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٥٥٥ - ٥٥٦ (٢) النحل : ١١٢ - ١١٣

ولهذا بدلهم الله بحاليهم الاولين خلافهما ، فألبسها وأذاقها الجوع بعد أن ~~كانت~~ كان يجيئ اليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان ».. ~~[illegible]~~ وذلك أنهم أستعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوا إلا خلافه ، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العلهز - وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه - كما بدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حين هاجروا الى المدينه ، من سطوته وسراياه وجيوشه ».

وجعل كل مالهم فى دمار ، حتى فتحها الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بسبب بغيهم وتكذيبهم رسول الله ، الذى بعثه الله فيهم منهم ، وأمتن به عليهم فى قوله .. ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾.

كما أنه أنعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الامن ، وجاعوا بعد الرغد ، فبدل الله المؤمنين بعد خوفهم أمنا ، ورزقهم بعد العيله ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم .(١)

وقال الرازى :

وهذا مثل أهل مكة ، لأنهم كانوا فى الامن والطمأنينه والخصب ، ثم أنعم الله عليهم بالنعمه العظيمه وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فكفروا به ، وبالغوا فى إيذائه ، فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام(٢)

(١) ابن كثير ج٤ ص٥٦٩-ص٥٧٠ . (٢) التفسير الكبير ج٢٠/١٢٨

(١٥) ـ المؤمن الذى يعمل بطاعة الله ، والكافر الذى أبطرته النعم :

فى فجر الاسلام ، طلب الكفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يطرد الفقراء من مجلسه ، فضرب الله هذا المثل لأولئك الكفار ..

وقال المفسرون : هما أخوان من بنى اسرائيل ، احدهما مؤمن ، والآخر كافر ، ورثا مالا عن أبيهما .. فأشترى الكافر بماله حديقتين ، وأنفق المؤمن ماله فى مرضاة الله حتى نفذ ماله ، فعيره الكافر بفقره ، فأهلك الله مال الكافر.

وضرب هذا مثلا للمؤمن الذى يعمل بطاعة الله ، والكافر الذى أبطرته النعم. فقد جعل الله سبحانه للكافر بستانين من شجر العنب مثمرين بأنواع العنب اللذيذ ، وأحاطهما بسياج من شجر النخيل ، وجعل الله وسط هذين البستانين زرعا يتفجر بينهما نهر ..

وانه لمنظر بهيج يصوره القرآن أروع تصوير ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكروم ، المحفوفتين بأشجار النخيل ، تتوسطهما الزروع ، وتتفجر بينهما الانهار.

فكل واحدة من الحديقتين أخرجت ثمارها يانعا فى غاية الجودة والطيب ولم تنقص منه شيئا ، وجعل الله النهر يسير بين الحديقتين ..

فقال الكافر صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن ، وهو يجادله ويخاصمه ، ويفتخر عليه ويتعالى : أنا أغنى منك وأشرف ، وأكثر أنصارا وخدما.

وذات يوم أخذ الكافر بيد أخيه المؤمن ، ودخل الحديقة يطوف به فيها ، ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأزهار ، وهو ظالم لنفسه بالعجب والكفر ، فقال : ما اعتقد أن تفنى هذه الحديقة أبدا ، وما اعتقد القيامة قائمة وحاصلة ، فقد أنكر فناء جنته ، وأنكر البعث والنشور ، وأضاف انه لئن كان هناك بعث ـ على سبيل الفرض والتقدير كما تزعم ـ فسوف يعطينى الله خيرا من هذا وأفضل ، فكما اعطانى هذا فى الدنيا ، فسيعطينى فى الآخرة لكرامتى عليه ..

فقال المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويجادله : أجحدت الله الذى خلقك أصلك من تراب ثم من منىّ ثم سواك انسانا سويا ؟ ولكن أنا اعترف بوجود الله سبحانه - فهو ربى وخالقى ، ولا أشرك مع الله غيره ، فهو المعبود وحده لا شريك له ..

فهلا حين دخلت حديقتك ، واعجبت بما فيها من الاشجار والثمار قلت : هذا من فضل الله ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته ..

فإن كنت ترى إنى أفقر منك ، وتعتز علىّ بكثرة مالك وأولادك ، فإنى أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه ، أن يقلب ما بى وما بك من الفقر والغنى ، فيرزقنى جنةً خيرا من جنتك لإيمانى به ، ويسلب عنك نعمته لكفرك به ، ويخرب بستانك ، ويرسل عليك آفةً تجتاحك أو صواعق من السماء تدمرها ، فتصبح الحديقة أرضا ملساء لا تثبت عليها قدم ، جرداء لا نبات فيها ولا شجر ، ويغور ماؤها فى الأرض ، فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر ، وحينئذ لا تستطيع طلبه ، فضلا عن اعادته ورده .

وتكون المفاجأة المدهشة ، فيتحقق رجاء المؤمن بزوال النعيم عن الكافر ، فهلكت جنته بالكلية ، واستولى عليها الخراب والدمار فى الزروع والثمار ، فأصبح الكافر يقلب كفيه ظهرا لبطن أسفا وحزنا على ماله الضائع وجهده الذاهب ..

قال القرطبى : اى يضرب احدى يديه على الاخرى ندما لأن هذا يصدر من النادم .

وهى مهشمة محطمة ، قد سقطت السقوف على الجدران ، فأصبحت خرابا ، وهو نادم على أشراكه بالله تعالى ، يتمنى أن لم يكن قد كفر بالنعمة ، فندم حين لا ينفع الندم ..

فلم تكن له جماعة ينصرونه وتدفع عنه الهلاك ، وما كان بنفسه ممتنعا عن أنتقام الله سبحانه ، فلم تنفعه العشيرة والولد حين أعتز وأفتخر بهم ،

وفي ذلك المقام وتلك الحال تكون النصرة لله وحده لا يقدر عليها أحد ، فهو الوليُّ الحق الذي ينصر أولياءه ..

فالله خير ثوابا في الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وهو خير عاقبة لمن اعتمد عليه ورجاه ."(١)

وعن أنس رضي الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت . ﴾

وعن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

﴿ ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا قوة إلا بالله . ﴾

قال تعالى :

﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا . لكنَّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا . وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا . هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا . ﴾(٢)

(١) صفوة التفاسير جـ ١٥ صـ ١٩١ - ١٩٢ .

(٢) الكهف : ٣٢ - ٤٤

(١٦) من الناس من يجادل في الله بغير علم :

يخبر الله تعالى أنه من الناس من يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بعلم صحيح يهدى الى المعرفه ، ولا الى كتاب منير ..

قال ابن عطيه ، فكأنه يقول .. هذه الامثال في غاية الوضوح والبيان ، ومن الناس مع ذلك من يجادل في الله بغير دليل ولا برهان [١] .. وذلك ليصد الناس عن دين الله وشرعه ، فله الذل والهوان في الحياه الدنيا ، ويذيقه الله في الآخره النار المحرقه ..

فذلك الخزى والعذاب بسبب ما اقترفه من الكفر والضلال ، وإن الله عادل لا يظلم احدا من خلقه (٢)

وصدق الله العظيم حين قال :

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد . ﴾ (٣)

أي يجادل في الله بلا عقل ، ولا نقل صريح ، بل بمجرد الرأى والهوى ، مستكبرا عن الحق اذا دعى اليه ..

وقال مجاهد وقتادة : لاوى رقبته ويعرض عما يدعى اليه من الحق استكبارا ، ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ فله في الدنيا الاهانة والذل . (٤)

---

(١) البحر ٦/٣٥٤ (٢) صفوة التفاسير جـ٢ ص٢٨٤ (٣) الحج : ٨ - ١٠ (٤) ابن كثير جـ٣ ص٢٠٩

(١٧) ومن الناس من يعبد الله على حرف :

ومن الناس من يعبد الله على جانب وطرف من الدين ، وهذا تمثيل للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين ، بل عن قلق واضطراب ، كالذى يكون على طرف الجيش ، فإن أحس وظفر بغنيمه استقر ، وإلا فر ..

قال الحسن :

هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه .

وقال ابن عباس :

كان الرجل يقدم المدينه ، فإن ولدت امرأته غلاما ، وأنتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله .. قال : هذا دين سوء (١)

هكذا كان المنافقين ، فإن نال أحدهم خيرا في حياته من صحة ورخاء أقام على دينه ، وإن ناله شئ يفتتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع الى ما كان عليه من الكفر .. اضاع الدنيا والآخره ، فشقى الشقاوة الابدية .. ذلك هو الخسران الواضح الذى لا خسران بعده .

فهو يعبد الصنم الذى لا ينفع ولا يضر ، ذلك هو نهاية الضلال الذى لا ضلال بعده ..

لقد شبه الله حالهم بحال من أبعد من التيه ضالا عن الطريق ، يعبد وثنا أو صنما ، ضله فى الدنيا بالخزى والذل اسرع من نفعه الذى يتوقعه بعبادته ، وهو الشفاعة له يوم القيامة .

والآيه سيقت تسفيها وتجهيلا لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها ، فبئس الناصر وبئس القريب والصاحب . (٢)

(١) القرطبى ١٢ / ١٧ (٢) صفوة التفاسير حـ ٢ صـ ٢٨٢

وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن اصابه خير أطمأن به وإن اصابته فتنه أنقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين • يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد • يدعو لمن ضره أكثر من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾[1]

وقال ابن عباس :

كان ناس من الاعراب يأتون النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسلمون ، فإذا رجعوا الى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث ، وعام خصب ، وعام ولاد حسن قالوا : إن ديننا هذا لصالح ، فتمسكوا به ، وان وجدوا عام جدوبه ، وعام ولادة سوء ، وعام قحط ، قالوا ما في ديننا هذا خير .. فأنزل الله على نبيه :

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن اصابه خير أطمأن به . ﴾[2]

(١) الحج : ١١ - ١٣ (٢) تفسير ابن كثير ح٣ ص٢٠٩

(١٨) - هذان خصمان اختصموا فى ربهم :

بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الى المدينة نزلت هذه الآية الكريمة : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾(١)

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بدر فى ثلاثمائة من أصحابه ، ليعترضوا عيرا لقريش يستردون بها بعض أموالهم ولم يأخذوا أهبة الحرب ولم يحملوا الا السلاح السافر .. السيوف فى القرب .. ولم يملكوا الا سبعين بعيرا وفرسين .. يتعاقبونها ..

وسلكت قافلة قريش طريق البحر ، وأفلتت بما عليها .. لتعلن فى مكة النبأ المزعج ..

وخرجت قريش كلها ، وخرجت معها قبائل مكة فى جيش رهيب تعداده ألف من المقاتلين يملكون من عدة الحرب مالم يسبق لجيش من العرب أن دب بها فوق الأرض ، يمتطون مائتى فرس وستمائة بعير ، ويتترسون فى لباس الحديد حتى لا يرى من بعضهم غير أعينهم ..

ونزل المسلمون ماء بدر ليمنعوا اعداءهم منها ، وبنوا عليها حوضا ... وبدأت المناوشة .

وانتدب اعداء الله لها .. الاسود بن عبد الاسد المخزومى ، وكان رجلا شرسا سيئ الخلق .. فأقسم عدو الله أن يشرب من الحوض أو ليهدمنه أو ليموتن دونه ، وانطلق الى الحوض ، فانطلق اليه حمزة بن عبد المطلب ، وقضى عليه حمزه فى الحوض .

---

(١) الحج : ٣٩

وذهل القرشيون ، ونظر بعضهم الى بعض .. ثم تقدم عتبه بن ربيعه وأخوه شيبه وأبنه الوليد للمبارزة ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ـ قم ياعبيده بن الحارث ، قم ياحمزة ، قم يا علي ..

ولم تكن الا جولة قتلهم حمزة وصاحباه ..[١]

ولقد ثبت في الصحيح ، عن أبي ذر .. أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية ﴿ هذان خصمان أختصموا في ربهم . ﴾[٢] نزلت في حمزة وصاحبيه ، وعتبه وصاحبيه يوم برزوا في بدر[٣].

وقال البخاري[٤] عن علي بن ابي طالب .. أنه قال :

أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة ..

قال قيس : وفيهم نزلت ، ﴿ هذان خصمان أختصموا في ربهم ﴾ قال : هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزه وعبيدة ، وشيبه بن ربيعه وعتبه بن ربيعه والوليد بن عتبه[٥]

أما الذين كفروا ، فقد فصلت لهم مقطعات من النار أو من نحاس وهو أشد الاشياء حرارة إذا حمى ، ويصب على رؤوسهم الماء الحار في نهاية الحرارة ..

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

﴿ إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمه حتى يخلص الى جوفه فيسلب ما في جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان ﴾[٦]

فيطنون في العذاب قولا وفعلا[٧]

---

(١) شهداء الصحابة في صدر الاسلام : محمد فهمي عبد الوهاب ص٥٥-٥٦ (٢) الحج : ١٩

(٣) لفظ البخاري عند تفسيرها . (٤) قال البخاري حدثنا حجاج بن المنهال حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبي حدثنا ابو مجلز عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب (٥) أنفرد به البخاري.

(٦) رواة الترمذي (٧) ابن كثير جـ٢ ص٢٠٦ ص٢٠٧ .

وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . ﴾[1]

(١٩) - الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة أو كظلمات في بحر لجي :

يقول تعالى :

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور . ﴾[2]

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار ..

فالمثال الاول للكفار الدعاة الى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شيء من الاعمال والاعتقادات ، وليسوا في نفس الامر على شيء ، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام ، فإذا رأى السراب من هو محتاج اليه يحسبه ماء ، وقصده ليشرب منه ، فلما انتهى اليه ﴿ لم يجده شيئا ﴾

فكذلك الكافر ، يحسب أنه عمل عملا ، وأنه قد حصل شيئا ، فإذا وافى الله يوم القيامة ، وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئا بالكلية قد قبل ، إما لعدم الاخلاص أو عدم سلوك الشرع .. كما قال تعالى :

﴿ وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا . ﴾

(١) الحج : ١٩ - ٢٢ (٢) النور : ٣٩ - ٤٠

وقال سبحانه .. : ﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾

وفي الصحيحين .. أنه يقال يوم القيامة لليهود ، ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد عزيز ابن الله ، فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون ؟ فيقولون يا رب عطشنا فاسقنا ، فيقال : ألا تردون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فينطلقون فيتهافتون فيها .
وهذا مثال لذوي الجهل المركب .. (١)

أما أصحاب الجهل البسيط - وهو المثال الثاني - هم الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون .. فمثلهم كما قال تعالى :
﴿ أو كظلمات في بحر لجي .. ﴾ أي هو بحر عميق .. فمثل الكفار كظلمات متكاثفة في بحر عميق لا يدرك قعره ، يغطيه ويعلوه موج متلاطم بعضه فوق بعض ، ومن فوق الموج سحاب كثيف .. أي هي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها فوق بعض . " فهو يتقلب في خمسة ظلمات ، فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار " (٢)

وإذا أخرج ذلك الإنسان الواقع في هذه الظلمات يده لم يقارب رؤيتها فإن ظلمة البحر ، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب ، قد تكاثفت حتى حجبت عنه رؤية أقرب شيء إليه من شدة الظلمة .. فكذلك شأن الكافر يتخبط في ظلمات الكفر والضلال (٣)

ومن لم يهده الله للإيمان وينور قلبه بنور الإسلام لم يهتد أبد الدهر ..
هكذا ذكر الله تعالى لعمل الكافر مثالين : الأول لعمله الصالح ومثل له بالسراب الخادع ، والثاني لاعتقاده السيء ومثل له بالظلمات المتكاثفة بعضها فوق بعض (٤)

(١) ابن كثير جـ٢ صـ٤٨٦ (٣) قول : قتادة في صفوة التفاسير جـ١٨ صـ٢٤٢ (الطبري ١٨/١١٦)
(٢) صفوة التفاسير جـ١٨ صـ٢٤٠ (٤) صفوة التفاسير جـ١٨ صـ٢٤٢

(٢٠) أمثال أقاويل الكفار العجيبة :

كان صناديد قريش واستراقوا يسمعون القرآن حين يتلى عليهم فيبهرهم بألفاظه ومعانيه ونظمه، ورقته حين يرق وشدته حين يشتد. ولكنهم على ذلك لا يؤمنون له، بعضهم يمنعه الحسد، وبعضهم تمنعه الكبرياء، وكلهم يشتد عليهم ما كانوا يُدعَوْن من البر والمعروف، والعدل والمساواة، وإنصاف الفقراء من الأغنياء، والضعفاء من الأقوياء، ومن ترك آلهتهم وعاداتهم، وكثير من الأخلاق التي وجدوا عليها آباءهم، وتوارثتها أجيالهم جيلا بعد جيل..

وقال المشركون، ما لهذا الذي يزعم الرسالة يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في الأسواق لطلب المعاش كما نمشي؟ أنه ليس بملك ولا ملك، لأن الملائكة لا تأكل، والملوك لا تتبذّل في الأسواق.

هلا بعث الله معه ملكاً ليكون له شاهدا على صدق ما يدعيه، أو يأتيه كنز من السماء فيستغني ~~بها~~ عن طلب المعاش، أو يكون له بستان يأكل من ثماره..

وتمادوا في ضلالهم، فقال الكافرون للمؤمنين ما تتبعون إلا إنسانا سحر فغلب على عقله، فهو يزعم أنه رسول الله..

فقال تعالى: أي انظر كيف قالوا في حقك يا محمد تلك الأقاويل العجيبة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال! وكيف اخترعوا تلك الصفات والأحوال الشاذة فضلوا بذلك عن الهدى! فلا يجدون طريقا الى الحق بعد أن ضلوا عنه بتكذيبك وإنكار رسالتك..

ولقد ذكروا له عليه الصلاة والسلام خمس صفات، وزعموا أنها تُخِلّ بالرسالة زعما منهم أن فضيلة الرسول على غيره تكون بأمور جسمانية، وهي غاية الجهالة والسفاهة..

فرد الله عليهم بأمرين :

الاول : تعجب الرسول صلى الله عليه وسلم من تناقضهم ، فتارة يقولون عنه شاعر ، وتارة ساحر ، واخرى يقولون أنه مجنون ، حتى اصبحت تلك الاقوال الغريبة الشاذة ، من الامور العجيبة جارية مجرى الامثال ..

والثاني : أن الله تعالى لو أراد لأعطى نبيه خيرا مما أقترحوا ، وأفضل مما يتصورون ، وهو المراد بقوله : ﴿ تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك ﴾ فلو شاء لأعطاك بساتين وحدائق تسير فيها الانهار ، لا جنة واحدة كما قالوا ويجعل لك مع الحدائق القصور الرفيعة المشيدة كما هو حال الملوك .. [1]

قال الضحاك : لما عيّر المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة ، حزن عليه الصلاة والسلام ، فنزل جبريل معزيا له ، فبينما النبي وجبريل يتحدثان ، إذ فُتح باب من السماء ، فقال جبريل : أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضى من ربك فسلّم عليه وقال : ربك يخيّرك بين أن تكون نبيا ملكا ، وبين أن تكون نبيا عبدا - ومعه سفط من نور يتلألأ - ثم قال : هذه مفاتيح خزائن الأرض .. فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جبريل كالمستشير ، فأومأ بيده أن تواضع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ﴿ بل نبيا عبدا ﴾ [2]

قال سفيان الثوري [3] .. قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن شئت نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ، ولا نعطي أحدا من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله .. فقال : ﴿ أجمعوها لي في الآخرة . ﴾ [4]

---

(١) صفوة التفاسير جـ٢ صـ٢٥٦

(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٢ / ٦٤٤ .

(٣) عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة (٤) ابن كثير جـ٢ صـ٣٠

وصدق الله العظيم حين قال :

﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا . تبارك الذي إن شاء جعل لك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ﴾[1]

## (٢١) - آلهة الكفار كبيت العنكبوت :

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ، ويتمسكون بهم في الشدائد .. ، فهو في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدي عنه شيئا .. فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء ..

هذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع ، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها .[2]

وقال القرطبي : هذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا .[3]

وتوعد تعالى لمن عبد غيره وأشرك به ، أنه تعالى يعلم ما هو عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم[4]

ثم اخبر الله تعالى أن تلك الأمثال ما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه . فقد بينها في القرآن الكريم لتقريبها الى أذهان الناس وما يعقلها إلا المؤمنين العالمون الذين يعقلون عن الله عز وجل مراده .

---

١) الفرقان : ٧ - ١٠ (٢) ابن كثير ج٣ ص٢٩٩ (٣) القرطبي ٣٤٥/١٢ (٤) ابن كثير ج٣ ص٢٩٩

وصدق الله العظيم حين قال :

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون . ﴾[1]

---

(١) العنكبوت : ٤١-٤٤

(٢٢)- واضرب لهم مثلا أصحاب القرية :

ذكر الله تعالى في كتابه العزيز قصة أهل القرية للمشركين ، الذين كذبوا الرسل ، فأهلكهم الله بصيحة من السماء .

فأخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكر لقومه الذين كذبوه قصة أصحاب القرية هذه .. وهي " أنطاكية " .. التي هي في الغرابة كالمثل السائر والقول العجيب .

فقد أرسل الله إليهم ثلاثة رسل وهم " صادق " و " مصدوق " و " شمعون " ..

فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن ينذر هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل من الله .. وقيل : هم رسل عيسى[1]

فحين بعث الله إليهم رسولين بادرهما بالتكذيب ، فقواهما وشد أزرهما تعالى برسول ثالث .. فقالوا : نحن رسل الله مرسلون لهدايتكم ، فقال المشركون : ليس لكم فضل علينا ، وما أنتم إلا بشر مثلنا ، فكيف أوحى الله إليكم دوننا ، وإن الله لم ينزل شيئا من الوحي والرسالة ، ما أنتم إلا قوم تكذبون في دعوى الرسالة ..

فأجابهم الرسل بقولهم : الله يعلم أننا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة لانتقم منا أشد الانتقام ، وليس علينا إلا أن نبلغكم رسالة الله بلاغا واضحا جليا لا غموض فيه ، فإن آمنتم فلكم السعادة ، وإن كذبتم فلكم الشقاوة ..

فقال لهم أهل القرية : إنا تشاءمنا بكم وبدعوتكم العقيمة لنا إلى الإيمان ، وترك عبادة الأوثان .

قال المفسرون : ووجه تشاؤمهم بالرسل أنهم دعوهم إلى دين غير ما يدينون به ، فاستغربوه ، ونفرت منه طبيعتهم المعوجة ، فتشاءموا بمن دعا إليه كأنهم قالوا : أعاذنا الله مما تدعوننا إليه (٢) .

(١) تفسير القرطبي ١٤/١٥ (٢) حاشية شيخ زادة على البيضاوي ١٥٥/٢

ثم يوعدوا الرسل بقولهم : والله لئن لم تمتنعوا عن قولكم ، ودعوتكم لنا الى التوحيد ، ورفض ديننا ، لنرجمنكم بالحجارة حتى تموتوا ، ولنقتلنكم شر قتلة .

فقالت الرسل لهم : ليس شؤمكم بسببنا ، وإنما شؤمكم بسببكم ، وبكفركم ، وعصيانكم ، وسوء أعمالكم .. أئن ذكرناكم ووعظناكم ودعوناكم الى توحيد الله ، تشاءمتم بنا ، وتوعدتمونا بالرجم والتعذيب ؟! فليس الامر كما زعمتم ، بل أنتم قوم عادتكم الاسراف فى العصيان والاجرام ..

وجاء من أبعد أطراف المدينة رجل يسرع فى مشيه وهو ( حبيب النجار )

وقال ابن كثير : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم ، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه وهو - حبيب النجار - كان يعمل الحرير ، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه [1]

وقال الطبرى : كان حبيب مجذوما ، ومنزله عند أقصى أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الاصنام سبعين سنة ، يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضُرَّه فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل ودعوتهم الى الله قال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، نحن ندعوا ربنا القادر فيفرج عنك ما بك .. فقال حبيب : إن هذا لعجيب ، إنى أدعو هذه الالهة سبعين سنة لتفرج عنى فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ قالوا : نعم ربنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع ولا تضر ، فآمن ، ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، فلما هم قومه بقتل الرسل جاءهم مسرعا [2]

فقال حبيب لاهل القرية : يا قوم اتبعوا الرسل الكرام الداعين الى توحيد الله ، اتبعوا هؤلاء الرسل الصادقين المخلصين الذين لا يسألونكم أجرة على الايمان ، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم اليه من توحيد الله .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١٥٩/٢ . والقول بأن اسم الرجل (حبيب النجار) مروى عن ابن عباس .

(٢) تفسير القرطبى ١٨/١٥ ، وهذه رواية وهب ذكرها القرطبى .

ثم قال : اى شئ يمنعنى من أن أعبد خالقى الذى أبدع خلقى ؟ واليه مرجعكم بعد الموت فيجازى كلاً بعمله ؟ وكيف تتخذون من دون الله آلهة لا تسمع ولا تنفع ولا تغنى عن عابدها شيئا ؟ فهى فى المهانة والحقارة بحيث لو أراد الله أن ينزل بى شيئا من الضر والأذى ، وشفعت لى ، لم تنفع شفاعتهم ولم يقدروا على أنقاذى ، فكيف وهى احجار لا تسمع ولا تنفع ولا تشفع ؟ فهى لا تقدر على أنقاذى من عذاب الله .. فإنى ان عبدت غير الله ، واتخذت الاصنام آلهة ، لفى خسران ظاهر جلى ..

وبعد هذا النصح والتذكير أعلن اسلامه ، واشتهر إيمانه ، فقال : إنى آمنت بربكم الذى خلقكم ، فاسمعوا قولى ، واعملوا بنصيحتى ..

قال المفسرون : لما قال لهم ذلك ، وأعلن ايمانه ، وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه أذاهم (١)

قال الطبرى : وثبوا عليه فوطئوه بأقدامهم حتى مات ، وقيل رجموه بالحجارة حتى مات (٢)

فلما مات حبيب النجار قال الله له : اى .. أدخل الجنة مع الشهداء الابرار ، جزاء على صدق ايمانك وفوزك بالشهادة .

قال ابن مسعود : انهم وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره ، وقال الله له « أدخل الجنة » فدخلها فهو يرزق فيها ، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها (٢) ..

فلما دخل الجنة وعاين ما اكرمه الله بها لايمانه وصبره ، تمنى أن يعلم قومه بحاله ليعلموا حسن مآله ، وقال : ياليتهم يعلمون السبب الذى من أجله غفر لى ربى ذنوبى ، وأكرمنى بدخول جنات النعيم .

(٢) مختصر بن كثير ١٦٠/٢

(١) مختصر ابن كثير ١٥٩/٢ (٢) تفسير القرطبي ١٠٤/٢٢ ~~(٣) هو قول ابن عباس .~~

قال ابن عباس : نصح قومه في حياته ، ونصحهم بعد مماته[1]

وقال أبو السعود : وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والاجر ، بالتوبة عن الكفر والدخول في الايمان ، جريا على سنن الاولياء في الترحم على الاعداء[2]

فما كانت عقوبة قومه إلا صيحة واحدة ، صاح بهم جبريل ، فإذا هم ميتون لاحراك بهم ، قد اخمدت أنفاسهم حتى صاروا كالنار الخامدة ..

قال المفسرون : هذا استحقار لاهلاكهم ، فإنهم أذل وأهون على الله من ان يرسل الملائكة لاهلاكهم ، وقد روى أنه لما قتل (حبيب النجار) غضب الله تعالى له ، فعجل لهم النقمة ، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة ، فماتوا عن آخرهم ، فجعل عقوبة استئصالهم بالصيحة ..

ثم قال تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾[3]
اى يا أسفا على هؤلاء المكذبين برسل الله ، المنكرين لآياته ، ويا حسرة عليهم ، ما جاءهم من رسول إلا كذبوه واستهزءوا به[4]

وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان ..

وقال في حاشية البيضاوي : أنهم أحقاء بأن يتحسروا على أنفسهم ، أو يُتحسر عليهم ، فإن الامر لفخامته وشدته ، بلغ الى حيث ان كل من يتأتى منه التلهف اذا نظر الى حال استهزائهم بالرسل تحسر عليهم ، وقال : ياله من حسرة وخيبة على هؤلاء المحرومين ، من حيث بدلوا الايمان بالكفر ، والسعادة بالشقاوة.[5]

---

(١) تفسير هذا قول ابن عباس (٢) تفسير أبي السعود ٤/٥٢ (٢) يونس : ٣٠ (٤) صفوة التفاسير ج٢ ص١٩-٢٠

(٥) حاشية زادة على البيضاوي ٢/١٢٨

ويقص الله تعالى فى محكم آياته هذه القصه .. فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القريه اذ جاءها المرسلون . اذ أرسلنا اليهم أثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا اليكم مرسلون . قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ ان أنتم الا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون . وما علينا الا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون . وجاء من أقصى المدينه رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون . ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون . انى اذا لفى ضلال مبين . انى آمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنه قال ياليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين . وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين . ان كانت الا صيحه واحدة فإذا هم خامدون . ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزءون ﴾[1]

(١) يس : ١٣-٣٠

(٢٢)- حالة الإنسان إذا مسه الله بضر، وإذا خوله نعمه منه :

يخبر الله تعالى عن حال الكافر الجاحد إذا مسه ضر وإذا خوله نعمة منه ..

فيقول تعالى في محكم آياته :

﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار . ﴾(١)

ويقول ابن كثير(٢) :

أي عند حاجة الإنسان يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له كما قال تعالى:

﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا . ﴾

فإذا أصاب الإنسان الكافر شدة من فقر ومرض وبلاء ، تضرع إلى ربه في إزالة تلك الشدة ، مقبلا إليه مخبتا مطيعا ..

ثم إذا أعطاه نعمة منه وفرّج عنه كربته ، نسي الضر الذي أصابه والذي كان يدعو ربه لكشفه ، وتمرّد وطغى ، وجعل لله شركاء في العبادة ، ليصد عن دين الله وطاعته ..

﴿ قل تمتع بكفرك قليلا ﴾ أمر للتهديد ، أي تمتع بهذه الحياة الدنيا الفانية ، وتلذذ فيها وأنت على كفرك ، عمرا قليلا وزمنا يسيرا ، فمصيرك إلى نار جهنم ، وأنت من الخالدين فيها(٢)

(١) الزمر ٨ . (٢) ابن كثير ج٤ ص٤٩ (٢) صفوة التفاسير ج٣ ص٧٦

## (٢٤) الذين كفروا أتبعوا الباطل والذين آمنوا أتبعوا الحق من ربهم :

يقول تعالى :

﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم . ﴾(١)

هذا أعلان حرب من الله تعالى على أعدائه ، وأعداء دينه ..

فالذين جحدوا بآيات الله وأعرضوا عن الاسلام ، ومنعوا الناس من الدخول فيه أبطل الله أعمالهم وأحبطها ، وجعلها ضائعه لاثواب لها لأنها لم تكن لله فبطلت ..

والمراد هنا أعمالهم الصالحة منها ، كاطعام الطعام ، وصلة الأرحام ، وقرى الضيف ..

قال الزمخشري : وحقيقه إضلال الاعمال جعلها ضالة ضائعه ، ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الابل ، التى لا رب لها يحفظها ويعتني بأمرها .. والمراد أعمالهم التي عملوها فى كفرهم بما كانوا يسمونه ( مكارم الاخلاق ) من صلة الارحام ، وفك الاسرى وقرى الضيف ، وحفظ الجوار ..(٢)

والذين جمعوا بين الايمان الصادق ، والعمل الصالح ، وصدقوا بما أنزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، تصديقا جازما لا يخالجه شك ولا أرتياب ، وهو عطف خاص على عام ، والنكتة فيه تعظيم أمره والاعتناء بشأنه ، أشاره الى أن الايمان لا يتم بدونه(٣) لذلك أكده بقوله ﴿ وهو الحق من ربهم . ﴾ اى وهو الثابت المؤكد المقطوع بأنه كلام الله ووحيه المنزّل من عند الله .

---

(١) محمد : ١-٣ (٢) الكشاف ٤/٥٢٥ (٣) حاشيه الصاوي ٤/٨١

فأزال ومحا عنهم ما مضى من الذنوب والاوزار ، وأصلح شأنهم وحالهم ، في دينهم ودنياهم ..

ثم بين الله تعالى سبب ضلال الكفار ، واهتداء المؤمنين ..
فاضلال اعمال الكفار بسبب أنهم سلكوا طريق الضلال ، واختاروا الباطل على الحق.
وأن المؤمنين سلكوا طريق الهدى ، وتمسكوا بالحق المنزل من عند الرحمن
ومثل ذلك البيان الواضح ، بيّن الله أحوال الفريقين ـ المؤمنين والكافرين ـ بأوضح بيان ، وأجلى برهان ليعتبر الناس ويتعظوا .(١)

ويقول تعالى في شأن الكافرين :
﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزا حكيما ﴾(٢)
ويقول تعالى في شأن المؤمنين :
﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا . ﴾(٣)

---

(١) صفوة التفاسير ج٣ ص٢٠٦ (٢) النساء : ٥٦ (٣) النساء : ٥٧

## (٥٢) مثل الله المنافقين بالشيطان :

كان أمر النبى صلى الله عليه وسلم مع المنافقين معقداً أشد التعقيد ، لأنه أتصل منذ هاجر النبى الى المدينة الى أن آثره الله بجواره . ولأن النبى والمسلمين لقوا منهم شراً أى شر ، وبلاء أى بلاء .

وكان أمر المنافقين من جهة أيسر من أمر المشركين واليهود ، فلم تكن بينهم وبين المسلمين حرب ولم تسفك بينهم دماء .. ، ولكنه كان من جهة أخرى أشد من أمر المسلمين مع المشركين واليهود عسراً ، ذلك لأن المنافقين لم يصنعوا صنيع أولئك ولا صنيع هؤلاء ، لم يبادروا النبى وأصحابه بالكفر ، وإنما أظهروا الاسلام وأضمروا الكفر ..
ولم يبادروا النبى وأصحابه بالعداوة الصريحة ، وإنما أظهروا المودة ، وأضمروا البغض والعداء ، ولم يخصّ الشاعر القديم حين قال :

فإما أن تكون أخى بحق ... فأعرف منك غثى من سمينى
وإلا فأترِكنى واتخذنى ... عدواً أتقيك وتتقينى

ويوشك النفاق أن يكون أبعد من الكفر الصريح والعداء البين أثراً فى أفساد حياة الناس .

وكان العرب فى المدينة قبيلتين - الاوس والخزرج - وكان من قبيلة الاوس رجل عظم شأنه ، وأرتفعت مكانته فى قومه ، حتى كادوا يتوجونه ملكاً عليهم ..
فلما جاء الأسلام ، وهاجر النبى وأصحابه الى يثرب ، سقط أمر هذا الرجل ، وأصبح كغيره من أهل المدينة رجلاً من الاوس ، وضاعت آماله ، وضاعت كذلك آمال أتباعه فيه ..
فليس غريباً ان يضيق هذا الرجل " عبد الله بن أبى بن سلول " والذين أتبعوه بمقدم النبى الى المدينة ، وأنتشار الاسلام فيها ، وأنصراف المسلمين من الاوس والخزرج عن التفكير فى الملك ، وفيمن يصير الملك اليه ، الى التفكير فى الاسلام والنبوة والى الاستجابة للنبى فى كل ما يدعوهم اليه ويأمرهم به ، والانتهاء عما كان ينهاهم عنه ويخوفهم به ..

وليس غريبا أن يمتلئ قلب هذا الرجل ، والذين لاذوا به حقدا وحسدا للنبي ومن جاء معه من المهاجرين ، ومن أتبعه من الأنصار من الأوس والخزرج جميعا.

هكذا لم يشرح الله تعالى صدور المنافقين للإسلام ، ولم يجرءوا على أن يظهروا الكفر ، فعاشوا مذبذبين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، كما وصفهم الله في الآية الكريمة من سورة النساء .

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يرؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ﴾(١)

ويخبر الله تعالى في كتابه العزيز عن هؤلاء المنافقين ، كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا الى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم .. فقال تعالى :

﴿ ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . ﴾(٢)

وهذا تعجب من الله تعالى لرسوله من حال المنافقين أي فلا تعجب يا محمد من شأن هؤلاء المنافقين الذين أظهروا خلاف ما أضمروا ..

فهم يقولون ليهود بني قريظة والنضير الذين كفروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، لئن أخرجتم من المدينة لنخرجن معكم منها ..

قال في التسهيل : نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول وقوم من المنافقين ، بعثوا الى بني النضير ، وقالوا لهم : أثبتوا في حصونكم ، فإنا معكم كيف ما تقلبت حالكم ..(٣)

---

(١) النساء : ١٤٢-١٤٣

(٢) الحشر : ١١ (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١١٠/٤

وقالوا : أى .. ولا نطيع أمر محمد فى قتالكم ، ولا نسمع من أحد إذا أمرنا بخذلانكم ، ولئن قوتلتم أحد لنعاوننكم على عدوكم ونكون بجانبكم ..

والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما قالوا ووعدوهم به ..

ثم قال تعالى :

﴿ لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . ﴾(١)

فإن أخرج اليهود لا يخرج المنافقون معهم ، ولئن قوتل اليهود لا ينصرهم المنافقون ولا يقاتلون معهم ..

قال القرطبى : وفى هذا دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، من جهة أمر الغيب ، لأنهم أُخرجوا فلم يخرجوا معهم ، وقوتلوا فلم ينصروهم كما أخبر عنه القرآن .(٢)

وإن جاءوا لنصرتهم وقاتلوا معهم - على سبيل الفرض والتقدير - فسوف ينهزمون ثم لا ينفعهم نصر المنافقين .

وقال الإمام الفخر : أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجوا فإن المنافقين لا يخرجون معهم ، وقد كان الأمر كذلك .. فإن بنى النضير لما أُخرجوا لم يخرج معهم المنافقون ، وقوتلوا كذلك فما نصروهم .. أما قوله تعالى ﴿ ولئن نصروهم ﴾ فهذا على سبيل الفرض والتقدير ، أى بتقدير أنهم أرادوا نصرتهم لابد وأن يتركوا تلك النصرة وينهزموا ..(٣)

(١) الحشر : ١٢ (٢) تفسير القرطبى ١٨/٢٤ (٣) التفسير الكبير ٢٩/٢٨٩

ثم قال تعالى :

﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .﴾[1]

أي .. لأنتم يا معشر المسلمين أشد خوفا وخشية في قلوب المنافقين .. من الله ، فإنهم يرهبون ويخافون منكم أشد من رهبتهم من الله ، وذلك الخوف منكم بسبب أنهم لا يعلمون عظمة الله تعالى حتى يخشوه حق خشيته .

قال القرطبي : أي لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته .[2]

ثم أخبر تعالى عن اليهود والمنافقين بأنهم جبناء من شدة الهلع ، وأنهم لا يقدرون على قتال المسلمين إلا إذا كانوا متحصنين في قلاعهم وحصونهم ..

فهم لا يقاتلونكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصنة بالأسوار والخنادق ، أو يكونوا من وراء الحيطان ليستتروا بها ، لفرط جبنهم وهلعهم ..

وعداوتهم فيما بينهم شديدة ، وتظنهم مجتمعين على أمر ورأي وذوي ألفة واتحاد ، وهم مختلفون غاية الاختلاف لأن آراءهم مختلفة ، وقلوبهم متفرقة .

قال قتادة : أهل الباطل مختلفة آراؤهم ، مختلفة أهواؤهم ، مختلفة شهادتهم وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق ..[3]

وذلك التشتت والتفرق لأنه لا عقل لهم يعقلون به أمر الله ..

قال في البحر : وموجب ذلك التفرق والتشتت هو انتفاء عقولهم ، فهم كالبهائم لا تتفق على حالة ..[4]

وصفة بني النضير فيما وقع لهم من الجلاء الذل ، كصفة كفار ~~قريش~~ مكة فيما وقع لهم ~~في زمان قريب~~ .. يوم بدر من الهزيمة والأسر .

(١) الحشر : ١٣-١٤ (٢) تفسير القرطبي ٣٥/١٨ (٣) تفسير الخازن ٦٦/٤

(٤) تفسير البحر ٢٤٩/٨ (٥) ~~تفسير البيضاوي ٤٧٨/٢~~

وقال البيضاوي: اي مثل اليهود كمثل أهل بدر، أو المهلكين من الامم الماضية في زمان قريب (١).. ذاقوا سوء عاقبة أجرامهم في الدنيا، ولهم عذاب شديد موجع في الآخرة.

﴿ كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر ﴾ اي مثل المنافقين في اغراء اليهود على القتال، كمثل الشيطان الذي أغرى الانسان بالكفر ثم تخلى عنه وخذله، فلما كفر الانسان تبرأ منه الشيطان وقال.. ﴿ إني اخاف الله رب العالمين ﴾ (٢)

قال ابن جرير (٣) قال علي ابن ابي طالب:

ان راهبا تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه، فعمد الى أمرأة فأجنها ولها أخوة، فقال لأخوتها عليكم بهذا القس فيداويها، قال.. فجاءوا بها اليه، فداواها وكانت عنده، فبينما هو يوما عندها إذ اعجبته فأتاها فحملت، فعمد اليها فقتلها، فجاء أخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، أنك أعييتني أنا صنعت هذا بك، فأطعني أنجك مما صنعت بك، فأسجد لي سجدة، فسجد، فلما سجد له قال إني بريء منك، إني اخاف الله رب العالمين.. فذلك قول الله:

﴿ كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك إني اخاف الله رب العالمين ﴾.

وصدق الله العظيم حيث قال:

﴿ كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم. كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني اخاف الله رب العالمين. فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ (٤)

---

(٢) صفوة التفاسير ج٣ ص٢٥٢-٢٥٤

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ٤٧٨ (٣) حدثنا خلاد بن أسلم اخبرنا النضر بن شميل اخبرنا شعبة عن ابي اسحاق سمعت عبد الله بن نهيك قال سمعت عليا رضي الله عنه يقول.. / ابن كثير ج٤ ص٣٤١

(٤) الحشر: ١٥-١٧

## (٢٦) - مثل الذين حملوا التوراة .. كمثل الحمار يحمل أسفارا :

قال تعالى :

﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (١)

لقد انحرف اليهود عن شريعة الله ، حيث كُلِّفوا بالعمل بأحكام التوراة ، ولكنهم أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم ، وضربت مثلا لهم بالحمار الذى يحمل على ظهره الكتب الكبيرة النافعة ، ولكنه لا يناله منها إلا العناء والتعب ، وذلك نهاية الشقاء والتعاسة ..

ويقول ابن كثير (٢) : يقول تعالى ذما فى اليهود الذين أعطوا التوراة ، وحملوها للعمل بها ، ثم لم يعملوا بها .. مثلهم فى ذلك كمثل الحمار إذ يحمل كتبا لا يدرى ما فيها ، فهو يحملها حملا حسيا لا يدرى ما عليه ، وكذلك هؤلاء فى حملهم الكتاب الذى أوتوه ، حفظوه لفظا ولم يتفهموه ، ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالا من الحمير ، لأن الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهوم مزموم ولم يستعملوها ، لذلك قال تعالى فى الآية الكريمة .. ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ -

وقال القرطبى (٣) : شبههم تعالى - والتوراة فى أيديهم وهم لا يعملون بها - بالحمار يحمل كتبا ، وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة ، فهو يتعب فى حملها ولا ينتفع بما فيها .

وقال فى حاشية البيضاوى : ذمَّ تعالى اليهود بأنهم قراء التوراة ، عالمون بما فيها وفيها آيات دالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ووجوب الإيمان به ، ولكنهم لم ينتفعوا بها مما ينجيهم من شقاوة الدارين ، وشبههم بالحمار الذى يحمل أسفار العلم والحكمة ولا ينتفع بها ، ووجه التشبيه حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شىء فى الانتفاع مع الكد والتعب .. (٤)

---

(١) الجمعة : ٥ (٢) ابن كثير ج٤ ص٣٦٤ (٣) تفسير القرطبى ١٨/٩٥

(٤) حاشية شيخ زادة على البيضاوى ٧/٤٩٤

## (٢٧) - مثل الذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط :

قال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا أمرأة نوح وأمرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل أدخلا النار مع الداخلين ﴾[1]

ضرب الله مثلا للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح ، لأن الاسباب كلها تنقطع يوم القيامة ، ولا ينفع إلا العمل الصالح .

وهو مثل للكفار بعدم استفادتهم من قرابة المؤمنين فقال ﴿ أمرأة نوح وأمرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ﴾ أي نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلا ونهارا يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط .. ﴿ فخانتاهما ﴾ في الايمان فلم يوافقاهما في الايمان ، ولا صدقاهما في الرسالة ، فلم يجد ذلك كله شيئا ، ولا دفع عنهما محذورا .. ولهذا قال تعالى :- ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ﴾ لكفرهما ..

وقيل للمرأتين ﴿ أدخلا النار مع الداخلين ﴾ . . . وليس المراد بقوله ﴿ فخانتاهما ﴾ في فاحشة ، بل في الدين ، فإن نساء الانبياء معصومات من الوقوع في الفاحشة لحرمة الانبياء ..

ويقول ابن عباس : ( فخانتاهما ) قال : ما زنتا .. أما خيانة أمرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة أمرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه .

وقال أيضا : كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما ، فكانت أمرأة نوح تطلع على سر نوح ، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به ، وأما أمرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحد أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء ..(٢)

(١) التحريم ، ١٠ . (٢) ابن كثير جـ٤ صـ٣٩٢ ، صفوة التفاسير جـ٣ صـ٤١١

قال القرطبي : ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيهاً على أنه لا يغني في الآخرة أحد عن قريب ولا نسيب، إذا فرّق بينهما الدين، كما لم يدفع نوح ولوط - مع كرامتهما على الله تعالى - عن زوجتيهما لما عصتا شيئاً من عذاب الله (١)

(١) تفسير القرطبي : ١٨ / ٢٠١

## الفصل الثالث

## أمثال المؤمنين ومن أراد الله هدايته

(١) - قصة الرجل الصالح عزيز :

وضرب الله مثلا لمن أراد هدايته ، فقد مرّ رجل صالح يدعى "عزيز" على قرية بيت المقدس لما خربها بختنصر ، وقد سقطت جدرانها على سقوفها ، فقال : كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها ودمارها ؟ وقد قال ذلك استعظاما لقدرة الله تعالى ، وتعجبا من حال تلك القرية وما هي عليه من الخراب والدمار ، وكان "عزيز" راكبا على حماره حينما مرّ عليها .

وأراد الله العلي القدير ، فأمات الله سبحانه ذلك السائل واستمر ميتا مائة عام ، ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته وطلاقتها ..

فقال له الله بواسطة الملك ، كم مكثت في هذه الحال ؟ قال : يوما ، ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب ، فقال : أو بعض يوم ، فخاطبه ربه بقوله .. ﴿ قال بل لبثت مائة عام ﴾ ، فإن شككت فأنظر الى طعامك لم يتغير بمرور الزمان ، وكان معه عنب وتين وعصير ، فوجدها على حالها لم تفسد .. وقال له تعالى : ﴿ وأنظر الى حمارك ﴾ كيف تفرقت عظامه ونخرت وصار هيكلا من البلى ، وقد فعلنا ما فعلناه لتدرك قدرة الله سبحانه ، ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ..

وتأمل في عظام حمارك النخرة ، كيف نركب بعضها فوق بعض وانت تنظر ، ثم نكسوها لحما بقدرتنا ..

فلما رأى الآيات الباهرات ، قال : أيقنت وعلمت علم مشاهدة أن الله على كل شيء قدير ..

وقال مجاهد :

ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان ، وكافران ، فالمؤمنان "سليمان بن داود" و "ذو القرنين" ، والكافران "النمرود" و "بختنصر" الذي خرب بيت المقدس (١)

(١) مختصر ابن كثير ١ / ٢٣٤

وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فأنظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وأنظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ~~قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي~~ فلما تبين له قال اعلم أن الله على كل شئ قدير . ﴾[١]

**٢) مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل :**

قال ابن كثير :

﴿ مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل ﴾

وهذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق فى سبيله وأبتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، أى مثل نفقتهم كمثل حبة زرعت فأنبتت سبع سنابل .. ﴿ فى كل سنبلة مائة حبة ﴾ فتكون الحبة قد أغلت سبعمائة حبة ..

وهذا تمثيل لمضاعفة الاجر لمن أخلص فى صدقته ، ولهذا قال تعالى ﴿ والله يضاعف لمن يشاء . ﴾ فيضاعف الاجر لمن أراد على حسب حال المنفق من اخلاصه وأبتغائه بنفقته وجه الله .. فالله واسع الفضل عليهم عليم بنية المنفق ..

ولقد ضرب الله سبحانه مثلا آخر فى هذا الشأن اذ قال تعالى :

﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم أبتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير . ﴾[٢]

(١) البقرة : ٢٥٩ (٢) البقرة : ٢٦٥

فهؤلاء الذين ينفقون اموالهم طلبا لمرضاة الله وتصديقا بلقائه ، تحقيقا للثواب عليه ، كمثل بستان كثير الشجر بمكان مرتفع من الأرض ، وخصصت بالربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها ، واصابها مطر شديد غزير ، فأخرجت ثمارها جنيّه مضاعفه ، ضعفى ثمر غيرها من الأرض ..

فإن لم ينزل عليها المطر الغزير ، فيكفيها المطر الخفيف ، أو يكفيها الندى لجودتها وكرم منبتها ، ولطافه هوائها ، فهى تنتج على كل حال .. فالله لا يخفى عليه شئ من اعمال العباد

(٢) - ضرب الله مثلا كلمة طيبه كشجرة طيبه ...:

قال تعالى :

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبه كشجرة طيبه أصلها ثابت وفرعها فى السماء • تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون •﴾[١]

وهذا مثل ضربه الله تعالى لكلمة الايمان ~~وكلمة الاشراك~~ ، فمثل بكلمة الايمان بالشجرة الطيبه ..

قال أبن عباس : الكلمه الطيبه (لا اله إلا الله) والشجرة الطيبه (المؤمن)[٢].

وأصل الشجرة راسخ فى الأرض ، واغصانها ممتده نحو السماء ، تعطى ثمرها كل وقت بتيسير الخالق وتكوينه ..

كذلك كلمه الايمان ثابته فى قلب المؤمن ، وعمله يصعد الى السماء وينال بركته وثوابه فى كل وقت ..

كذا يبين الله الامثال لعلهم يتعظون فيؤمنون .[٣]

(١) أبراهيم : ٢٤-٢٥ (٢) أبن كثير ج٤ ص٥٩١ (٣) صفوة التفاسير ج١٢ ص٩٦

ويقول ابن كثير (١):

إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لايزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساء، هكذا روى السدي عن مرة عن ابن مسعود قال هي النخلة.

وقال البخاري عن ابن عمر.. قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « اخبروني عن شجرة تشبه - أو كالرجل المسلم - لا يتحات ورقها صيفا ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؟ ».

قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئا.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « هي النخلة ».. فلما قمت قلت لعمر: يا أبتاه لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا، فقال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا (٢).

---

(١) ابن كثير ج ٢ ص ٥٣٠ (٢) ابن كثير ج ٢ ص ٥٣١

## (٤) هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ... :

قال تعالى :

﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا قائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الالباب .﴾(١)

يقول عز وجل ، أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا ؟ لا يستوون عند الله ..

قال الثورى ..... عن ابن مسعود(٢) : القانت المطيع لله عز وجل ..

وقال ابن عباس : آناء الليل .. جوف الليل ..

والقانت فى حالة عبادته خائف راج ، ولابد فى العبادة من هذا وهذا ، وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب .. فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه ، كما قال الامام عبد بن حميد فى مسنده .. عن أنس رضى الله عنه : قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى الموت .. فقال له :

﴿ كيف تجدك ؟ ﴾ فقال أرجو وأخاف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو وأمنه الذى يخافه .﴾(٣)

فالمؤمن خائفا من عذاب الآخرة ، راجيا رحمة ربه وهى الجنة ، هل يستوى هذا المؤمن التقى مع ذلك الكافر الكاذب ؟ لا يستوون عند الله ..

ثم ضرب الامثال ، هل يستوى العالم والجاهل ؟ فكما لا يستوى هذان لذلك لا يستوى المطيع والعاصى(٤)

(١) الزمر : ٩ (٢) قال الثورى عن فراس عن الشعبى عن مسروق عن ابن مسعود . ابن كثير جـ٤ صـ٤٤ (٣) ابن كثير جـ٤ صـ٤٤ - رواه الترمذى (٤) حاشية زاده على البيضاوى ٢ / ١٩٤

إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة ..

قال الإمام الفخر : واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل ، وختمها بذكر العلم .. أما العمل فهو : القنوت ، والسجود ، والقيام ، وأما العلم ففي قوله تعالى : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية ، والعلم والمكاشفة هو النهاية "(١)

٥) مثل المؤمنين كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ على سوقه :-

قال تعالى :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾(٢)

يخبر الله تعالى عن محمد صلى الله عليه وسلم ، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب ، ثم ثنى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم وذلك كقول الله عز وجل .. ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾.

وهذه صفة المؤمنين ، أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار ، رحيما برا بالأخيار .. غضوبا عبوسا في وجه الكافر ، ضحوكا بشوشا في وجه أخيه المؤمن ، كما قال تعالى .. ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ﴾(٣)

---

(١) صفوة التفاسير جـ٣ صـ٧٢ (٢) الفتح : ٢٩ (٣) التوبة : ١٢٣

وقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ».

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه »(1)

ولقد وصفهم الله تعالى بكثرة العمل ، وكثرة الصلاة .. وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل .. وهو سعة الرزق عليهم ، ورضاه تعالى عنهم ..

« سيماهم في وجوههم من أثر السجود ».

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما .. « سيماهم في وجوههم ». يعني السمت الحسن .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ».

وقال بعض المفسرين :

« إن للحسنة نورا في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس »

وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه :

« ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ».

والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى ، أصلح الله عز وجل ظاهره للناس ..

---

(1) كلا الحديثين في الصحيح .

وقال الإمام أحمد(١) ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿ لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا ما كان ﴾

فالصحابة رضي الله عنهم، خلصت نياتهم، وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم ..

قال مالك رضي الله عنه، بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام، يقولون والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ أي ذلك وصفهم في التوراة، الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين..(٢)

ثم قال ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ﴾ أي ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه وفروعه، فشدة فشب وطال، فقام الزرع واستقام على أصوله، فعجب الزراع بقوته وكثافته وحسن منظره ~~ليغيظ~~ ليغتاظ بهم الكفار (٣)

" قال الضحاك: هذا مثل في غاية البيان، فالزرع محمد صلى الله عليه وسلم، والشطء أصحابه، كانوا قليلا فكثروا، وضعفاء فقووا..

وقال القرطبي: وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يعني أنهم ~~كانوا~~ يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعوة ضعيفا، نباته وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان.

---

(١) قال الإمام أحمد، حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ابن كثير جـ٤ ص٢٠٦ (٣) صفوة التفاسير جـ٣ ص٢٢٨

وعدهم الله تعالى بالآخرة ، بالمغفرة التامة ، والاجر العظيم ، والرزق الكريم ، في جنات النعيم".(١)

### (٦) مثل الذين آمنوا امرأة فرعون :

قال تعالى :

﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾(٢)

وهذا مثل للمؤمن في عدم تضرره بيقاء قريبه على الكفر إذا كان هو مؤمنا ، فلا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم ..

قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم ، فما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن الله تعالى عدل لا يؤاخذ احدا إلا بذنبه ..

وقال ابن جرير : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها في الجنة .

وقال أيضا : كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال غلب موسى وهارون ، فتقول : آمنت برب موسى وهارون .. فأرسل إليها فرعون ، فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فإن مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء ، فأبصرت بيتها في الجنة ، فمضت على قولها ، وانتزعت روحها ، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح ..

فقولها .. ﴿ رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ﴾ قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار ..

---

(١) صفوة التفاسير جـ٣ صـ٣٩٩ (٢) التحريم : ١١

﴿ونجني من فرعون وعمله﴾ - أي خلصني منه فإني أبرأ إليك من عمله ،
﴿ونجني من القوم الظالمين﴾ وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها [١]

قال الحسن : لما دعت بالنجاة ، نجاها الله تعالى أكرم نجاة ، فرفعها إلى الجنة
تأكل وتشرب وتنعم .. [٢]

وقال أبو جعفر الرازي [٣] :-
كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون ، وذلك أنها جلست
تمشط ابنة فرعون ، فوقع المشط من يدها ، فقالت : تعس من كفر بالله ، فقالت لها بنت
فرعون : ولك رب غير أبي ؟ قالت : نعم ، ربي ورب أبيك ورب كل شيء ، فلطمتها
بنت فرعون وضربتها ، وأخبرت أباها ، فأرسل إليها فرعون فقال : تعبدين ربا غيري ؟
قالت : نعم ، ربي وربك ورب كل شيء الله وإياه أعبد ، فعذبها فرعون وأوتد لها
فشد يديها ورجليها ، وأرسل عليها الحيات ، فأتى عليها يوما فقال لها : ما أنت منتهية ؟
فقالت له : ربي وربك ورب كل شيء الله ، ..
فقال لها : إني ذابح ابنك ~~ابنك~~ في فيك إن لم تفعلي ؟ فقالت له : اقض ما أنت
قاض .. فذبح ابنها في فيها ، وإن روح ابنها بشرها فقال لها : أبشري يا أمه ، فإن
لك عند الله من الثواب كذا وكذا .. فصبرت ..
ثم أتى عليها فرعون يوما آخر ، فقال لها مثل ذلك ، فقالت له مثل ما قالت ، فذبح
ابنها الآخر في فيها ، فبشرها روحه أيضا وقال لها : اصبري يا أمه فإن لك عند الله
من الثواب كذا وكذا ..
قال : وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر ، فآمنت امرأة فرعون ،
وقبض الله روح امرأة خازن فرعون ، وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها في الجنة
لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيمانا ويقينا وتصديقا ، فأطلع الله فرعون على إيمانها

---

(١) ابن كثير جـ٤ ص٢٩٤ (٢) البحر المحيط ٨/٢٩٥ (٣) عن الربيع عن أنس عن أبي العالية

فقال للملأ : ما تعلمون عن آسيه بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها .. ، فقال لهم : إنها تعبد غيري .. فقالوا له : أقتلها .. فأوتد لها أوتادا ، فشد يديها ورجليها ، فدعت آسيه ربها فقالت : ﴿ رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ﴾ فوافقه ذلك أن حضرها فرعون ، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة ، فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ؟ إنا نعذبها وهي تضحك ، فقبض الله روحها في الجنة رضي الله عنها .[1]

## (٧) مثل الذين آمنوا مريم ابنه عمران :

قال تعالى :

﴿ ومريم ابنه عمران ~~ابنة عمران~~ التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾[2]

اى ومريم أبنه عمران مثل في الايمان كذلك ، التي حفظت فرجها وصانته عن مقارفه الفواحش ، فهي عفيفه شريفه طاهره .. لا كما زعم اليهود عليهم لعنه الله ، أنها زنت وان ولدها عيسى ابن زنى ..[3]

﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ اى بواسطه الملك جبريل ، فإن الله بعثه اليها فتمثل لها في صورة بشر سوى ، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها ، فنزلت النفخه في فرجها ، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ولهذا قال تعالى ﴿ فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ اى بقدره وشرعه وكتبه السماويه ، وكانت من القوم المطيعين العابدين لله عز وجل ، وهو ثناء عليها بكثرة العبادة والطاعه والخشوع ..[4]

قال الامام أحمد[5] .. عن ابن عباس .. قال :

خط رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرض أربعه خطوط وقال : ﴿ أتدرون ما هذا ﴾ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) ابن كثير جـ٤ صـ٢٩٤ (٢) التحريم ١٢ (٣) صفوة التفاسير جـ٣ صـ٤١٢
(٤) ابن كثير جـ٤ صـ٢٩٤ وصفوه التفاسير جـ٣ صـ٤١٢ (٥) حدثنا يونس حدثنا داود بن أبي الفرات عن علباء عن عكرمة عن ابن عباس

«أفضل نساء أهل الجنة خديجه بنت خويلد ، وفاطمه بنت محمد ، ومريم أبنة عمران ، وآسيه بنت مزاحم أمرأه فرعون .»

## الفصل الرابع
## متاع الحياة الدنيا

يخبر الله تعالى فى كتابه العزيز، أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط، ﴿ إذا لهم مكر فى آياتنا ﴾ قال مجاهد: استهزاء وتكذيب.

وفى الصحيح، أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح على أثر مطر من الليل، فقال: ﴿ هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ ﴾ قالوا: الله ورسوله أعلم:- قال ﴿ قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته، فذاك مؤمن بى كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بى مؤمن بالكواكب. ﴾(١)

وقال تعالى: ﴿ قل الله أسرع مكرا. ﴾ أى أشد استدراجا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو فى مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع مايفعله ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الجليل والحقير...

وصدق الله العظيم حين قال:

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذ لهم مكر فى آياتنا قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون. ﴾(٢)

* * * *

(١) ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٤ (٢) يونس: ٢١

ويخبر الله تعالى أنه هو الذى يسيرهم فى البر والبحر ، ويحفظهم ويكلؤهم بحراسته ، حتى إذا كانوا فى البحر والسفن تجرى بهم بسرعة ، فبينما هم كذلك إذ جاء إلى السفينة ريح عاصف شديدة ، واغتلم البحر عليهم وهلكوا ، فدعوا الله مخلصين ، يفردونه بالدعاء والابتهال لينجيهم من هذا الكرب العظيم ..

فلما أنجاهم من تلك الورطة ﴿ إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ﴾ كأن لم يكن من ذلك شيء ..

فقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ فإنما يذوق وبال هذا البغى أنتم أنفسكم ، فلا تضرون به أحداً غيركم ..

كما جاء فى الحديث .. ﴿ ما من ذنب أجدر من أن يجعل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم . ﴾[1]

وفى هذا يقول تعالى :

﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم ~~الحوت~~ الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[2]

﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾[3]

**(١) - مثل زهرة الحياة الدنيا كالنبات الذى عصفت به الريح :**

ويضرب الله تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض ، بما أنزل من السماء ، مما يأكل الناس من زروع وثمار وما تأكل الأنعام من أب وقضب .. حتى إذا تزينت الأرض بزينتها الفانية ، وحسنت بما خرج من رباها من الزهور النضرة .. وظن أهلها أنهم

---

(١) ابن كثير ج٢ ص٢٩٥ (٢) يونس : ٢٢ (٣) يونس : ٢٣

قادرون على جذاذها وحصادها ) فبينما هم كذلك ، إذ جاءتها صاعقة وريح شديد بارد ، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها ، كأنها ما كانت حيفا قبل ذلك ..

قال قتادة : كأن لم تنعم ..

وهكذا الامور بعد زوالها كأنها لم تكن .. ولهذا جاء في الحديث :

﴿ يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسه فيقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا .. ويؤتى بأشد الناس عذابا في الدنيا ، فيغمس في النعيم غمسه ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول : لا ﴾ (١)

هكذا بين الله الحجج والادلة لقوم يعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعا مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقتهم ، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها ..

وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية في كتابه العزيز فقال في سورة الكهف :

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا . ﴾ (٢)

وصدق الله العظيم حين قال :

﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا اخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون . ﴾ (٢)

---

(١) ابن كثير جـ٢ صـ٢٩٥ (٢) يونس : ٢٤

(٢) الكهف : ٤٥

(٢) مثل الحياة الدنيا كنبات الأرض الذى أصبح هشيما تذروه الرياح :

قال تعالى :

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا ० المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ० ﴾[1]

هذا مثل آخر للدنيا وبهرجها الخادع ، فمثل هذه الحياة فى زوالها وفنائها وانقضائها بماء نزل من السماء ، فخرج به النبات وافيا غزيرا ، وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه ، فصار متكسرا من اليبس متفتتا تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال .. فالله قادر على الافناء والاحياء ولا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء.

والاولاد والاموال زينة هذه الحياة الفانية ، ذات مثلها وهذه زينتها ، والكل الى فناء وزوال ، لا يغتر بها إلا الاحمق الجهول .. أما أعمال الخير فتبقى ثمرتها أبد الآباد ، وهى خير ما يأمله الانسان ويرجوه عند الله تعالى .

وقال ابن عباس : الباقيات الصالحات هى الصلوات الخمس ، وعنه أيضا أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة[2]

وفى الحديث : «سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله إلا الله ، والله أكبر .. هن الباقيات الصالحات»[3]

---

(١) الكهف : ٤٥ - ٤٦ (٢) هذا ما رجحه الطبرى ، وقال القرطبى : وهو الصحيح إن شاء الله .

(٣) صفوة التفاسير جـ ١٥ ص ١٩٢ ، ١٩٤

وعن أبي هريرة قال .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هن الباقيات الصالحات ﴾.

وقد سمع أبو أيوب الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

﴿ عرج بي إلى السماء ، فرأيت إبراهيم عليه السلام ، فقال يا جبريل من هذا الذي معك ؟ فقال محمد .. فرحب بي وسهل ، ثم قال مر أمتك فلتكثر من غراس الجنة ، فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة " فقلت : وما غراس الجنة ؟ " فقال لا حول ولا قوة إلا بالله ﴾(١)

فمن قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه ، ثم قال سبحان الله مائة مرة ، والحمد لله مائة مرة ، والله أكبر مائة مرة ، ولا إله إلا الله مائة مرة غسلت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل (٢) .

## (٢) - ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور :

يقول تعالى :

﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . ﴾(٣)

يقول تعالى موهنا أمر الحياة الدنيا ومحقرا لها ، ومكملا حال الآخرة .. أعلموا يا معشر السامعين أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لهو يتعب الناس فيها أنفسهم كإتعاب الصبيان أنفسهم في اللعب ، وشغل للإنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله ، وزينة يتزين بها الجهلاء كالملابس الحسنة ، والمراكب البهية ، والمنازل الرفيعة ، ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والولد كما قال القائل :

---

(١) ابن كثير جـ٣ صـ٥٤ (٢) ابن كثير جـ٣ صـ١٥ (٣) الحديد : ٢٠

أرى أهل القصور إذا أُميتوا ∴ بنوا فوق المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاةً وفخرا ∴ على الفقراء حتى فى القبور (١)

كذلك مباهاة بكثرة الأموال والأولاد .

قال ابن عباس : "يجمع المال من سخط الله ، ويتباهى به على أولياء الله ، ويصرفه فى مساخط الله ، فهو ظلمات بعضها فوق بعض" (٢)

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى زوالها زهرة فانية ، ونعمة زائلة ﴿ كمثل غيث ﴾ وهو المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس ، كما قال تعالى ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ فأعجب الزرّاع نباته الناشئ عنه ، ثم ييبس بعد خضرته ونضرته، فتراه مصفرّ اللون بعد أن كان زاهيا ناضرا ، ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه ، فيصبح هشيما تذروه الرياح كذلك حال الدنيا ، تكون أولا شابة ثم تكتهل ثم تكون عجوزا شوهاء ..

والإنسان يكون كذلك فى أول عمره ، وعنفوان شبابه غضا طريا لين الأعطاف بهى المنظر ، ثم يشرع فى الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخا كبيرا ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشئ اليسير .. كما قال تعالى :
﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير . ﴾ (٤)

ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير ، وليس فى الآخرة إلا عذاب شديد أو مغفرة من الله ورضوان .

(١) شعر فضيلة الشيخ عبد الفتاح ابو غده . عالم الشهباء (٢) التفسير الكبير للرازى ٢٩/٢٢
(٣) صفوة التفاسير جـ٣ صـ٣٢٧ (٤) صفوة التفاسير جـ٣ صـ٣٢٧ ، وابن كثير جـ٤ صـ٣١٢

﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي هي متاع فان غار لمن ركن اليها فإنه يغتر بها وتعجبه، حتى يعتقد أن لا دار سواها، ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة الى الدار الآخرة.

فعن أبي هريرة قال .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
﴿لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرءوا ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾﴾[١]

وقال الإمام أحمد[٢] ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
﴿للجنة أقرب من أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك.﴾
ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الانسان، وإذا كان الأمر كذلك فلهذا حثه الله تعالى على المبادرة في الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات .. فقال تعالى:
﴿سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض.﴾

---

(١) هذا الحديث ثابت في الصحيحين. (٢) حدثنا ابن نمير ووكيع كلاهما عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال .. قال رسول الله .. الحديث.

## الفصل الخامس

## أمثال الذين يدعون مع الله إلهاً غيره

### (١) مثلهم كباسط كفيه إلى الماء وما هو ببالغه :

قال تعالى :

﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾.(١)

فالله تعالى تحق له دعوة الحق ، فهو الحقيق بأن يعبد وحده بالدعاء والالتجاء ، اما الذين يدعوهم الكفار من دون الله ، لا يستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء .. إلا كمن يبسط كفيه للماء من بعيد يدعوه وينادي ليصل الماء إلى فمه ، والماء جماد لا يحس ولا يسمع ..

قال ابو السعود :

شبه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلاً ، بحال عطشان حائر لا يدري ما يفعل ، وقد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فمه ، وليس الماء ببالغ فمه أبدا لكونه جمادا لا يشعر بعطشه .(٢) فما دعاؤهم والتجاؤهم لآلهتهم الا في ضياع وخسارة لأنه لا يجدي ولا يفيد .

ويروي ابن جرير عن علي بن ابي طالب انه قال : ﴿ له دعوة الحق ﴾.

قال : التوحيد .

وقال ابن عباس : ﴿ له دعوة الحق ﴾ لا إله إلا الله .

وقال علي بن ابي طالب : مثل الذين يدعون آلهة غير الله ، كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبدا ، فكيف يبلغ فاه ؟

وقال مجاهد : ﴿ كباسط كفيه ﴾ يدعو الماء بلسانه فلا يأتيه أبدا ،

وقيل : المراد كقابض يده على الماء فإنه لا يحكم منه على شيء .

---

(١) الرعد : ١٤ (٢) أبو السعود ١٠٢/٣

والمعنى .. أن الذى يبسط يده إلى الماء إما قابضا وإما متناولا له من بعد ، كما أنه لا ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه الذى جعله محلا للشرب .. فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله آلهة غيره ، لا ينتفعون بهم أبدا فى الدنيا ولا فى الآخرة .. ولهذا قال تعالى .. ﴿ وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾.

(٢) فلا تضربوا لله الأمثال :

كان المشركون يعبدون أوثانا لا تقدر على إنزال المطر ، ولا على إخراج زرع أو شجر ، ولا تقدر أن ترزقهم قليلا أو كثيرا ، وهى لا تقدر عليه حتى لو أرادت .. فلا تمثلوا لله الأمثال ، ولا تشبهوا له الأشباه ، فإنه تعالى لا مثيل له ولا شبيه فهو يعلم كل الحقائق ، وأنتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق .

وصدق الله العظيم حين قال فيهم :

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون . فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[١]

ولقد ضرب الله تعالى مثلا لنفسه ، وللأصنام التى أشركوها مع الله جل وعلا .. فمثل هؤلاء فى إشراكهم ، كمثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حر مالك يتصرف فى أمره كيف يشاء .. مع أنهما سيان فى البشرية والمخلوقية لله تعالى ، فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات ؟

فهل يستوى العبيد والأحرار ، فالأصنام كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شئ ، والله تعالى له الملك ، وبيده الرزق ، وهو المتصرف فى الكون كيف يشاء ، فكيف يسوى بينه تعالى وبين الأصنام .

---

(١) النحل : ٧٣-٧٤

فشكر الله تعالى على بيان هذا المثال ووضوح الحجة، فقد ظهرت الحجة مثل الشمس الساطعة، ولكن المشركين بسفههم وجهلهم يسوون بين الخالق والمخلوق، وبين الكامل والمخلوق (١)

ويقول ابن كثير (٣)

يقول تعالى اخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنفضل المنعم الخالق الرازق لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الاصنام والانداد والاوثان، ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا، فلا يقدر على انزال المطر ولا انبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، فليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوا، ولهذا قال تعالى :- ﴿ فلا تضربوا لله الامثال ﴾ أى لا تجعلوا له أندادا وأشباها وأمثالا .. ﴿ ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أى انه يعلم ويشهد انه لا اله الا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

(٢) مثل العبد المملوك والحر المالك :

قال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٢)

هذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام التى أشركوها مع الله جل وعلا، فمثل هؤلاء فى اشراكهم مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك يتصرف فى أمره كيف يشاء .. مع أنهما سيان فى البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى فما الظن برب العالمين حيث يشركون به اعجز المخلوقات ؟ والحر المالك ينفق ماله فى الخفاء والعلانية ابتغاء وجه الله ..

(١) موسوعة التفاسير ج١٤ ص٦ (٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٥٩ (٢) النحل : ٧٥

فهل يستوى العبيد والاحرار الذين ضرب لهم المثل .. ؟ فالاصنام كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شئ ، والله تعالى له الملك ، وبيده الرزق ، وهو المتصرف فى الكون كيف يشاء .. فكيف يسوى بينه وبين الاصنام .

فشكرا لله على بيان هذا المثال ووضوح الحق ، فقد ظهرت الحجة مثل الشمس الساطعة ، ولكن المشركين بسفههم وجهلهم يسوون بين الخالق والمخلوق ، وبين المالك والمملوك .(١)

قال العوفى عن ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن ، فالعبد المملوك الذى لا يقدر على شئ مثل الكافر ، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرا وجهرا هو المؤمن (٢)

وقال مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى ، فهل يستوى هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهرا واضحا بينا لا يجهله إلا كل غبى ، قال الله تعالى : ﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .(٣)

(٤) <u>مثل الابكم ومن يأمر بالعدل</u> :

وضرب الله مثلا آخر للتفريق بين الاله الحق والاصنام الباطلة ..

قال مجاهد : هذا مثل مضروب للوثن والحق تعالى (٤)

فالوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ، ولا يقدر على شئ بالكلية لأنه إما حجر أو شجر ، وهو ثقيل عالة على وليه أو سيده ، فحيثما أرسله سيده لم ينجح فى مسعاه لأنه اخرس ، بليد ، ضعيف ، أما ذلك الرجل البليغ المتكلم فهو بأفصح بيان .. وهو على طريق الحق والاستقامة ، مستنير بنور القرآن ..

---

(١) صفوة التفاسير ج٤ ص١٢٦ (٢) ابن كثير ج٢ ص٥٥٩ (٣) ابن كثير ج٢ ص٥٥٩

(٤) الرازى ج٢٠ /٩٢

وإذا كان العاقل لا يسوّي بين هذين الرجلين ، فكيف تكون التسوية بين صنم أو حجر[1] وبين الله سبحانه وهو القادر العليم ، الهادي الى الصراط المستقيم .

وقال ابن القيم[2] :

ذكر الله تعالى مثلين - سابقي الذكر - فالمثل الأول ضربه لنفسه سبحانه والاوثان ، فالله هو المالك لكل شيء ، ينفقه كيف يشاء على عبيده سرا وجهرا ، وليلا ونهارا ، والاوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء الي ويعبدونها من دونه ، مع التفاوت العظيم والفرق البين ؟

وأما المثل الثاني ، فالصنم الذي يُعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق ، بل هو أبكم القلب واللسان ، ومع هذا لا يقدر على شيء البتة ، أينما أرسلته لا يأتيك بخير ، ولا يقضي لك حاجة ، والله سبحانه قادر ، متكلم ، يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم .. وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد ..[3]

وعن ابن عباس قال :

"ان الرجل الذي كان يأمر بالعدل ، فمقاله حمد وفعاله مستقيمة " هو عثمان بن عفان ، والابكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو مولى لعثمان بن عفان ، كان عثمان ينفق عليه ويكلفه المؤونة وكان الآخر يكره الاسلام ويأباه ، وينهاه عن الصدقة والمعروف " .[4]

---

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٢٤ (٢) اعلام الموقعين لابن القيم (٣) صفوة التفاسير : ج٢ ص١٣٦

(٤) ابن كثير ج٢ ص٥٦٦

(٥) أن الأصنام لا تقدر على خلق ذبابة :

أخبر الله تعالى المشركين في كتابه العزيز ، بأن الله قد ضرب مثلا لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام ، فتدبروه حق التدبر ، واعقلوا ما يقال لكم ، فإن هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها ، وإن اجتمعت على ذلك ، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله!

قال القرطبي : وخص الذباب لأربعة أمور : لمهانته ، وضعفه ، والاستقذاره وكثرته .. فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ، ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين ، وأربابا مطاعين ؟ وهذا من أقوى الحجة وأوضح البرهان (١).

قال الإمام أحمد ... عن أبي هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى :

« ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة ».

ولو اختطف الذباب شيئا من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته .. ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم ، والمطلوب الذي هو الصنم ، فكل منها حقير وضعيف ..

وقال ابن عباس : الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب وهو ظاهر السياق.

هكذا ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه الأصنام التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ، فالله هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ، وعز كل شيء فقهره ، فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار (٢).

(١) القرطبي : ٩٧/١٢ (٢) ابن كثير جـ ٣ ص ٢٣٨

(٦) - هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله..؟

يقول تعالى :

﴿ هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .﴾[١]

اي هو الله تعالى الذي ينشئ الخلق من العدم ، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء ، واعادة الخلق اهون عليه من بدئه .. وقال ابن عباس : يعني أيسر عليه .

وقال المفسرون : خاطب تعالى العباد بما يعقلون ، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء في تقديركم وحكمكم ، فإن من قدر على الانشاء كان البعث أهون عليه حسب منطقكم واصولكم[٢].

ولله الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيه من الجلال والكمال ، والعظمة والسلطان ..﴿ وله المثل الأعلى ﴾ يصفه به من في السماوات والأرض ، وهو أنه الذي ليس كمثله شئ .. وهو القاهر لكل شئ ، الحكيم الذي كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة[٣].

وروى البخاري[٤].... عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه أياي فقوله لن يعيدني كما بدأني ،وليس أول الخلق بأهون علىّ من أعادته ، وأما شتمه إياي فقوله أتخذ الله ولداً ، وأنا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾[٥]

---

(١) الروم : ٢٧ (٢) هذا قول . وذهب بعض المفسرين الى أن أفعل التفضيل ليس على بابه فيكون معنى (أهون) اى هو (هين) . صفوة التفاسير جـ٢ صـ٤٧٧ على هامشه
(٣) صفوة التفاسير جـ٢ صـ٤٧٧ (٤) وروى البخاري حدثنا ابو اليمان أخبرنا شعيب اخبرنا ابو الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة (٥) أنفرد به البخاري . ابن كثير جـ٢ صـ٤١٥

قال تعالى :

﴿ وضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت إيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه شركاء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾(١)

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء ، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هولك ، تملكه وما ملك ، فقال تعالى:

﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ﴾ أى تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم . ﴿ هل لكم ما ملكت إيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ أى يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكا له فى ماله فهما فيه سواء .. : ﴿ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ أى تخافون أن يقاسموكم الأموال .

والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ويجعلون له ما يكرهون ﴾ أى من البنات ، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، وجعلوها بنات الله ، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، فهم يأنفون من البنات ، وجعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر ..

وفى هذه الآية سالفة الذكر ، جعلوا لله شركاء من عبيده وخلقه ، وأحدهم يأبى غاية الإباء ، ويأنف غاية الأنفة من ذلك ، أن يكون عبده شريكه فى ماله يساويه فيه ﴿ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ﴾

---

(١) الروم : ٢٨ .

قال الطبراني ..... عن ابن عباس[1] ، قال : كان يلبي أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .. فأنزل الله تعالى: ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم . ﴾

ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى ، قال تعالى ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾[2]

مثل هذا المثال الواضح يبين الله تعالى الآيات لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال .[3]

(٧) مثل المشرك والموحد بالله :

ضرب الله مثلا في شركاء يتنازعون عبدا مشتركا فيما بينهم ، بينهم اختلاف وتنازع ، يتجاذبونه في حوائجهم ، وهذا يأمر بأمر وذاك يأمره بمخالفته ، وهو متحير موزع القلب ، لا يدري لمن يرضي؟

ورجلا آخر لا يملكه إلا شخص واحد ، حسن الأخلاق ، فهو عبد مملوك لسيد واحد يخدمه بإخلاص ويتفانى في خدمته ، ولا يلقى من سيده إلا إحسانا .

فهل يستوي هذا وذاك في حسن الحال ، وراحة البال ؟

فكذلك لا يتساوى المؤمن الموحد مع المشرك الذي يعبد آلهة شتى ..

قال ابن عباس هذا مثل ضرب للمشرك والمخلص[4]

وقال الرازي : هذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقبيح الشرك ، وتحسين التوحيد[5]

---

(١) قال الطبراني حدثنا محمود بن الفرج الأصبهاني ، حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي ، حدثنا حماد بن شعيب عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . ابن كثير ج٣ ص٤١٦

(٢) ابن كثير ج٣ ص٤١٦ (٣) صفوة التفاسير ج٢ ص٤٧٧ (٤) مختصر ابن كثير ١٩/٢

(٥) التفسير الكبير ٢٧٧/٢٦

## الفصل السادس

## مثل نور الله تعالى

جاء في الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق في السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف :

﴿ أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴾

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال :. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا قام من الليل :

﴿ اللهم لك الحمد ، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن . ﴾

وقال أبو جعفر الرازي ... عن أبي بن كعب ، في قوله تعالى :

﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره ﴾ .. قال :

هو المؤمن الذي جعل الله القرآن والإيمان في صدره ، فضرب الله مثله فقال ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ فبدأ بنوره ثم ذكر نور المسلم المؤمن فقال : مثل نور من آمن به (١)

" وقال جرير : " وأنت لنا نور وغيث وعصمة " والناس يقولون : فلان نور البلد ، فيجوز أن يقال : الله نور على وجه المدح ، لأن جميع الأشياء منه ابتداؤها ، وعنه صدورها ، وبقدرته استقامت أمورها (٢)

(١) ابن كثير جـ٣ صـ٢٨٠ (٢) القرطبي جـ١٢ / ٢٥٦

وقال ابن عطاء الله : الكون كله ظلمة أنار ظهور الحق فيه ، إذ لولا وجود الله ما وجد شيء من العالم (١)

وقال ابن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السماوات والأرض من نوره ..

وقال ابن القيم : سمى الله سبحانه وتعالى نفسه نورا ، وجعل كتابه نورا ، ورسوله نورا ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وفسرت الآية (الله نور السماوات والأرض) بأنه منور السماوات والأرض ، وهادي أهل السماوات والأرض .

فالله جل وعلا منور السماوات والأرض ، أنار السماوات بالكواكب المضيئة ، والأرض بالشرائع والاحكام وبعثة الرسل الكرام .

قال الطبري : أي هادي أهل السماوات والأرض ، فهم بنوره الى الحق يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون (٢)

وقال القرطبي : النور عند العرب : الضوء المدرك بالبصر ، واستعمل مجازا في المعاني ، فيقال كلام له نور .. قال الشاعر :

نسب كأن عليه شمس الضحى .. نورا من فلق الصباح عمودا

وهذا النور ككوة في الحائط لا منفذ لها (مشكاة) ليكون أجمع للضوء ، ووضع فيها سراج ثاقب ساطع )

قال في التسهيل : المعنى صفة نور الله في وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الاضاءة والانارة ، وأنما شبهه بالمشكاة - وان كان نور الله أعظم - لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الانوار ، ضرب لهم به المثل (٣)

(١) الحكم لأبي عطاء الله السكندري (٢) الطبري ١٨/١٠٥ وهذا قول ابن عباس ومجاهد

(٣) التسهيل ٢/٦٧

﴿المصباح في زجاجة كأنها كوكب دري ....﴾

اى المصباح في قنديل من الزجاج الصافي، تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها،

ويشعل ذلك المصباح من زيت شجرة مباركة وهي شجرة الزيتون، الذي خصه الله تعالى بمنافع كثيرة، فهي ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب، إنما هي في صحراء منكشفة تصيبها الشمس طول النهار، لتكون ثمرتها أنضج، وزيتها أصفى.

قال ابن عباس: هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر، ولا جبل، ولا كهف، ولا يواريها شيء، وهو أجود لزيتها[1]

﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ مبالغة في وصف وصفاء الزيت وحسنه وجودته، اى يكاد زيت هذه الزيتونة يضيء من صفائه وحسن ضيائه ولو لم تمسه نار، فكيف إذا مسته النار؟..

﴿نور على نور﴾ اى نور فوق نور، فقد اجتمع نور السراج، وحسن الزجاجة، وصفاء الزيت، فاكتمل النور المتمثل به..

ويوفق الله تعالى لاتباع نوره - وهو القرآن - من يشاء من عباده، ويبين الله لهم الامثال تقريبا لأفهامهم، ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الاسرار والحكم، والله سبحانه واسع العلم، لا يخفى عليه شيء من أمر الخلق..

وقال الطبري: ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب اهل الايمان به فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد مثل كوة في الحائط لا منفذ لها فيها مصباح - اى سراج - وجعل السراج مثلا لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات البينات.

---

(١) مختصر ابن كثير ٦٦٦/٢

ثم قال ﴿المصباح فى زجاجة﴾ وذلك مثل للقرآن فى قلب المؤمن الذى أنار الله صدره مخلص من الكفر والشك ..

ثم قال : ﴿الزجاجة كأنها كوكب درى﴾ اى كأن الزجاجة فى صفائها وضيائها كوكب يشبه الدر فى الصفاء والضياء والحسن

﴿يوقد من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية﴾ اى تُوقَّد هذا المصباح من دهن شجرة مباركة هى شجرة الزيتون ، ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشى دون الغداة ، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب ، فيكون زيتها أجود وأصفى وأضوأ ..

﴿يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار﴾ اى يكاد زيت هذه الزيتونة يضيئ فى صفائه وحسن ضيائه ..

ويعنى بها أن حجج الله على خلقه تكاد من بيانها ووضوحها تضيئ لمن فكر فيها ونظر ولو لم يزدها الله بيانا ووضوحا بنزول هذا القرآن ، فكيف وقد نبههم به وذكرهم بآياته ، فزادهم به حجة ، وذلك بيان من الله ونور على البيان.[1]

(١) الطبرى ١٨ / ١١٠ بشئ من الاختصار .

## الفصل السابع

## الله ، وكلماته ، وخشيته

### (١) مثل كلمات الله :

يقول الله تعالى :

﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير . ﴾(١)

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى ، وصفاته العلا وكلماته التامة الذى لا يحيط بها أحد ولا اطلاع للبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. : ﴿ لا أحصي ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك ﴾

يخبر تعالى ، ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مدادا وأمده سبعة أبحر معه ، فكتب بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ، لتكسرت الأقلام ، ونفذ ماء البحر ولو كان أمثالها مددا ..
وليس المراد (بمثله) بحر آخر فقط ، بل بمثله ثم بمثله ثم هلم جرا ، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته ..

وقال قتادة : قال المشركون ، إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام . ﴾ اى لو كان شجر الأرض أقلاما ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لينفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه .

---

(١) لقمان : ٢٧ - ٢٨

وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم في علم الله ، كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك .. ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾.

وقد روى أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود ..

فقال ابن اسحاق[1] ... عن ابن عباس : أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة : يا محمد أرأيت قولك ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ إيانا تريد أم قومك ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ كلا كما ﴾ .. قالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنها في علم الله قليل وعندكم من ذلك ما يكفيكم .. ﴾

وأنزل الله تعالى فيما سألوه عنه من ذلك .. ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾.

والله عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ، ولا مخالف ولا معقب لحكمه ، حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شئونه[2]..

وما خلق جميع الناس وبعثهم يوم الميعاد بالنسبة الى قدرته تعالى ، إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، فالجميع هين عليه ..

وهو سبحانه لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشيء ، كما أن الله سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم ، لسمعه وبصره بالنسبة لنفس واحدة ، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة .. ولهذا قال تعالى ﴿ وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾[2]

---

(١) قال ابن اسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس .

ابن كثير جـ٣ صـ٤٢٥ (٢)(٢) ابن كثير جـ٣ صـ٤٢٥ .

(٢) - ليس كمثله شيء :

قال تعالى :

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه أنيب ، فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الانعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .﴾(١)

ويقول محمد على الصابوني(٢) :

أي .. وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون من شيء من أمر الدنيا أو الدين ، فالحكم فيه الى الله جل وعلا ، هو الحاكم فيه بكتابه أو بسنة نبيه عليه السلام ، ذلكم الله ربي وحده، وليي ومالك أمري .

قال القرطبي : وفيه إضمار ، اى قل لهم يا محمد : ذلكم الذى يحيي الموتى ، ويحكم بين المختلفين هو ربي (٣)

وعليه وحده اعتمدت في أموري ، واليه وحده أرجع في كل ما يعرض عليَّ من مشكلات ومعضلات لا الى احد سواه .

وقال الرازى : والعبارة تفيد الحصر ، اى لا أتوكل إلا عليه ، ولا أنيب إلا اليه، وهو اشارة الى تزييف طريقة من أتخذ غير الله وليا .(٤)

ثم بين الله تعالى صفاته الجليلة القدسية ، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية ، فقال ﴿فاطر السماوات والأرض .﴾ اى هو جل وعلا خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق .

(١) الشورى : ١٠-١١ (٢) في كتابه صفوة التفاسير جـ٣ صـ١٢٤ (٣) تفسير القرطبي ٧/١٦
(٤) التفسير الكبير للرازى ١٤٩/٢٧

أى أوجد لكم بقدرته من جنسكم نساءً من الآدميات ، وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافاً ، ذكوراً وإناثاً ، يكثركم بسببه بالتوالد.. ولولا أنه خلق الذكر والأنثى لما كان ثمة تناسل ولا توالد..

﴿ ليس كمثله شئ ﴾ أى ليس له تعالى مثيل ولا نظير ، لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد .. (١)
والغرض.. تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين..
قال ابن قتيبة : العرب تقيم المثل مقام النفس .. فتقول : مثلى لا يقال له هذا أى أنا لا يقال لى هذا .. ومعنى الآية ليس كالله جل وعلا شئ (٢)

وقال القرطبى : والذى يعتقد فى هذا الباب أن الله - جل اسمه - فى عظمته وكبريائه وملكوته ، وحسنى أسمائه ، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، ولا يُشَبَّه به أحد.. وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيقى ، إذ صفات القديم - عز وجل - بخلاف صفات المخلوق ، وإذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض ، وهو تعالى منزه عن ذلك .. وقد قال بعض المحققين : التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذات ، ولا معطلة من الصفات..
وزاد الواسطى فقال : ليس كذاته ذات ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، وهذا مذهب أهل الحق ، أهل السنة والجماعة (٣)

---

(١) صفوة التفاسير جـ٣ صـ١٧٤

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ٤/٥٥ (٣) تفسير القرطبى ١٦/٨

٧) خشوع الجبل من خشية الله تعالى :

يقول تعالى :

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[1]

أي .. لو خلقنا في الجبل عقلا وتمييزا كما خلقنا في الإنسان ، وأنزلنا عليه هذا القرآن ، بوعده ووعيده ، لخشع وخضع وتصدع خوفا من الله تعالى ، ووجلا منه ..

وهذا تصوير لعظمة قدر القرآن ، وقوة تأثيره ، وأنه بحيث لو خوطب به جبل - على شدته وصلابته - لرأيته ذليلا من خشية الله ..[2]

والمراد منه توبيخ الإنسان بأنه لا يتخشع عند تلاوة القرآن ، بل يعرض عما فيه من عجائب وعظائم ، فهذه الآية في بيان عظمة القرآن ، ودناءة حال الإنسان[3]

وقال في البحر : والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وعدم تأثره بهذا الذي لو أنزل على الجبل لتخشع وتصدع ، وإذا كان الجبل على عظمته وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع ، فابن آدم كان أولى بذلك ، ولكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر.[4]

وتلك الأمثال نفصلها ونوضحها للناس لعلهم يتفكرون في آثار قدرة الله تعالى ووحدانيته فيؤمنون .

---

(١) الحشر : ٢١ (٢) صفوة التفاسير ج٣ ص٣٥٦ (٣) حاشية زادة على البيضاوي ٤٧٩/٢

(٤) تفسير البحر المحيط ٢٥١/٨

## الفصل الثامن

### أمثال البعث والنشور، والجنة، والشاهد والشهيد.

**(١) - مثل البعث والنشور :**

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، وينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذاك، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فأنزل به الماء فاض به الأرض بعد جدبها ويبسها .. ﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج..﴾.

كذلك الأجساد، إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعا، ونبتت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض، ولهذا قال تعالى ﴿كذلك النشور﴾.

وعن أبي رزين قال قال : قلت يارسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آيه ذلك في خلقه ؟ قال صلى الله عليه وسلم :
﴿ يا أبا رزين، أما مررت بوادي قومك ممحلا، ثم مررت به يهتز خضراً ﴾
قلت : بلى .. قال صلى الله عليه وسلم : ﴿فكذلك يحيي الله الموتى﴾..(١)

ومن هذا يقول الله عز وجل :
﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور.﴾(٢)

---

(١) ابن كثير جـ٢ صـ٥٢٧ (٢) فاطر : ٩

## ٢) مثل الجنة التى وعد المتقون :

ويصف الله تعالى الجنة التى وعدها المتقون ، ووعدها عبادة الابرار ، ففيها أنهار جاريات من ماء غير متغير الرائحة ..

قال ابن مسعود : أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك (١)

وأنهار جاريات من حليب فى غاية البياض والحلاوة والدسامة ، لم يحمض بطول المقام ، ولم يفسد كما تفسد ألبان الدنيا .. وفى حديث مرفوع « لم يخرج من ضروع الماشية »(٢)

وأنهار جاريات من خمر لذيذ الطعم ، يتلذذ بها الشاربون لأنه « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » وإنما قيدها بأنها لذة للشاربين ، لأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا لا يلتذ بها إلا فاسد المزاج ، وأما خمر الآخرة فهي طيبة الطعم والرائحة ، يشربها اهل الجنة لمجرد الالتذاذ ..

وأنهار جاريات من عسل فى غاية الصفاء وحسن اللون والريح ، لم يخرج من بطون النحل .. قال ابو السعود : اى لم يخالطه الشمع وفضلات النحل(٣)

ولهم فى الجنة أنواع متعددة من جميع أصناف الفواكه والثمار ..

قال فى حاشية الصاوى : وفى ذكر الثمرات بعد المشروب اشارة الى أن مأكول الجنة للذة لا للحاجة(٤)

ولهم فوق ذلك النعيم الحسى ، نعيم روحى وهو المغفرة من الله مع الرحمة والرضوان وفى الحديث « أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا »

قال الصاوى : وفى الجنة ترفع عنهم التكاليف فيما يأكلونه ويشربونه ، بخلاف الدنيا فإن مأكولها ومشروبها يترتب عليه الحساب والعقاب ، ونعيم الآخرة لا حساب عليه ولا عقاب فيه .(٥)

(١) مختصر ابن كثير ٢/٢٢٢ (٢) نفس المرجع السابق والصفحة (٣) تفسير أبى السعود ٥/٧٤
(٤) حاشية زادة على البيضاوى ٢/٢٤٨ (٥) حاشية الصاوى ٤/٨٤

فلا يستوى من هو في ذلك النعيم المقيم ، بمن هو خالد في الجحيم ، وسقوا مكان تلك الأشربة ماءً حاراً شديد الغليان ، فقطع أحشاءهم من فرط حرارته .

قال المفسرون : بلغ الماء الغاية في الحرارة ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رؤوسهم ، فإذا شربوا قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم"[1] ...(٢)

وقال تعالى :

﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم . ﴾[2]

(١) تفسير القرطبي ١٦/٢٣٧ (٢) صفوة التفاسير ج٣ ص٢٠٩ (٢) محمد : ١٥

فلا يستوى من هو فى ذلك النعيم المقيم ، بمن هو خالد فى الجحيم ، وسقوا مكان تلك الاشربة ماءً حاراً شديد الغليان ، فقطع أحشاءهم من فرط حرارته .

قال المفسرون : بلغ الماء الغاية فى الحرارة ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رؤوسهم ، فإذا شربوا قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم[1] ـ (٢)

## ٧) ـ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد :

قال تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد ﴾[1]

" يخبر الله تعالى عن قدرته على الانسان بأنه خالقه ، وعلمه محيط بجميع أموره ، حتى أنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بنى آدم من الخير والشر .

وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

﴿ إن الله تعالى تجاوز لأمتى ما حدثت به نفسها مالم تقل أو تعمل ﴾ ..

وملائكة الله تعالى أقرب الى الانسان من حبل وريده ..(٤)

اى خلقنا جنس الانسان ونعلم ما يجول فى قلبه وخاطره ، لا يخفى علينا من شئ خفاياه ونواياه ، ونحن أقرب اليه من حبل وريده ، وهو عرق كبير فى العنق متصل بالقلب .

قال ابو حيان : ونحن أقرب اليه قرب علم ، نعلم به وبأحواله لا يخفى علينا شئ من خفياته ، فكأن ذاته تعالى قريبة منه ، وهو تمثيل لفرط القرب ، كقول العرب هو منى معقد الازار .. هـ(٦)

---

١) تفسير القرطبى ١٧ / ١٧٩ (٢) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٢٦٩ (٣) ق : ١٦ (٥) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٢٤٢

٤) ابن كثير جـ ٤ ص ٢٢٥ (٦) تفسير البحر المحيط ٨ / ١٢٢

ويقول تعالى :

﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد • ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾[1]

قال مجاهد : وكل الله بالإنسان – مع علمه بأحواله – ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره إلزاما للحجة ، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات ، والآخر عن شماله يكتب السيئات ، فذلك قوله تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ [2]

وقال الألوسي : والمراد أنه سبحانه أعلم بحال الإنسان من كل قريب ، حين يتلقى المتلقيان الحافظان ما يتلفظ به ، وفيه إيذان بأنه عز وجل غني عن استحفاظ الملكين ، فإنه تعالى أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما ، ولكن الحكمة اقتضت كتابة الملكين لعرض صحائفهما يوم يقوم الأشهاد ، فإذا علم العبد ذلك – مع علمه بإحاطة الله تعالى بعلمه – ازداد رغبة في الحسنات ، وانتهاء عن السيئات . [3]

وقال الإمام أحمد[4] ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم أن يلقاه .﴾

وقال الأحنف بن قيس[5] :

صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال ، فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك ، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها ، وإن أبى كتبها .

---

(١) – ق : ١٧ – ١٨ (٢) تفسير القرطبي ١٧ / ٩ (٣) تفسير روح المعاني ٢٦ / ١٧٩

(٤) حدثنا أبو معاوية حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي عن أبيه عن جده علقمة عن بلال بن الحارث المزني عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم – ابن كثير ج٤ ص٢٢٥ (٥) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة

وقال تعالى :

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد . ﴾[1]

ويقول ابن كثير[2] : أيها الإنسان

يقول عز وجل ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، أى كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمترى فيه ، وهذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص .

ان عائشة - رضى الله عنها - قالت : حضرت أبى رضى الله عنه وهو يموت ، وأنا جالسة عند رأسه ، فأخذته غشيه ، فتمثلت ببيت من الشعر :

من لا يزال دمعه مقنعًا ... فإنه لا بد مرة مدفوق

قالت : فرفع رضى الله عنه رأسه فقال : يا بنية ليس كذلك ، ولكن كما قال تعالى : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد . ﴾

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه لما تغشاه الموت ، جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : ﴿ سبحان الله ! ان للموت لسكرات ﴾ .

وقد قال الطبرانى فى المعجم الكبير[3] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ مثل الذى يفر من الموت مثل الثعلب تطلبه الأرض بدين ، فجاء يسعى حتى إذا أعيى أسهر دخل جحره ، وقالت له الأرض يا ثعلب دينى ، فخرج وله حصاص ، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات . ﴾

---

(١) - ق : ١٩ (٢) ابن كثير ج ٤ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ (٣) حدثنا مؤمل بن على الصائغ المكى حدثنا حفص عن أبى عمر الحدى حدثنا معاذ بن محمد الهذلى عن يونس بن عبيد عن الحسن عن سمره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى :

« ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد .
لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . »(١)

والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل عن أمر الله تعالى ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث والنشور يوم القيامة .

وفى الحديث ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كيف أنعم وصاحب القرن التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له »

قالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل . » فقال القوم حسبنا الله ونعم الوكيل .

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . » اى ملك يسوقه الى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله(٢)

أما ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : السائق من الملائكة ، والشهيد الانسان نفسه وهى الايدى والأرجل(٣) »(٤)

" ولقد كنت أيها الانسان فى غفلة من هذا اليوم العصيب ، فأزلنا عنك الحجاب الذى كان على قلبك وسمعك وبصرك فى الدنيا ، فبصرك اليوم قوى نافذ ، ترى به ما كان محجوبا عنك لزوال الموانع بالكلية . "(٥)

---

(١) ق : ٢٠-٢٢ (٢) وهو اختيار ابن جرير - (٣) ابن كثير ج٤ ص٢٢٦ (٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٢٥-٢٢٦ (٥) صفوة التفاسير ج٣ ص٢٤٥

وقال تعالى :

﴿ وقال قرينه هذا ما لدى عتيد . ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد . قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد . ﴾(١)

أى .. وقال الملك الموكل به : هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله ،

فيقول تعالى للملكين (السائق والشهيد) أقذفا فى جهنم كل كافر معاند للحق لا يؤمن بيوم الحساب ، مبالغ فى المنع لكل حق واجب عليه فى ماله ، فهو ظالم غاشم شاك فى الدين . الذى أشرك بالله ولم يؤمن بوحدانيته .. فألقياه فى نار جهنم

وقال قرينه - وهو الشيطان المقيض له - ربنا ما أظلمته ، ولكنه ضل باختياره ، وآثر العمى على الهدى من غير إكراه أو إجبار ..

فيقول الله عز وجل للكافرين وقرنائهم من الشياطين : لا تختصموا هنا فما ينفع الخصام ولا الجدال ، وقد سبق أن أنذرتكم على ألسنة الرسل بعذابى ، وحذرتكم شديد عقابى ، فلم تنفعكم الآيات والنذر . فلا تغيير كلامى ، ولا يبدل حكمى بعقاب الكفرة المجرمين ..

وقال المفسرون : المراد وعده تعالى بعذاب الكافر وتخليده فى النار بقوله تعالى : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾(٢)

وقال تعالى : ولست ظالما حتى أعذب احدا بدون استحقاق ، واعاقبه بدون جرم.(٣)

---

(١) ق : ٢٢-٢٩ (٢) حاشية الجمل ٤/٩٦ ، والقرطبى ١٧/١٧

(٣) صفوة التفاسير جـ٣ ص٢٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

# الباب الثاني

## ﴿ العرش العظيم ﴾

﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾
(المؤمنون : ١١٦)

## العرش العظيم

① يقول الله تعالى :
﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾[١]

يخبر تعالى أنه خالق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك فى ستة أيام ، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن وفى السنة .. أيام الاحد الى يوم الجمعه ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام . أما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ، ومنه سمى السبت وهو القطع ..(٢)

وقال القرطبى : لو أراد لخلقها فى لحظه ، ولكنه أراد أن يعلم العباد التثبت فى الامور ..(٣)

وأما قوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾
فللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدا ، ونسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح من أئمة المسلمين قديما وحديثا[٤] : وهو امرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر الى أذهان المشبهين منفى عن الله ، فإن الله لا يشبهه شئ من خلقه ﴿ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ﴾.

والامر كما قال الأئمه ، ومنهم نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى .. قال : من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن اثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحه والاخبار الصحيحه على الوجه الذى يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص

(١) الاعراف ٥٤ (٢) ابن كثير ج٢ ص٢٢٠ (٣) القرطبى ٧/١٩ص (٤) السلف الصالح : مالك والاوزاعى والثورى والليث بن سعد والشافعى وأحمد واسحاق بن راهويه وغيرهم . ابن كثير ج٢ ص٢٢٠

فقد سلك سبيل الهدى ...(١)

وقال الإمام مالك : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .(٢)

وقال الإمام أحمد : أخبار الصفات تمر كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال كيف ؟ ولم ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف يشاء ، وكما يشاء بلا حدود ولا صفة يبلغها واصف أو يحدها حاد ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكل الكيفية في الصفات الى علم الله عز وجل.(٣)

وقال القرطبي : لم ينكر احد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء ، فإنه لا تعلم حقيقته ..(٤)

⑥ يقول تعالى :
﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا .... ﴾(٥)

اي خلقها في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، وفيه الحث للعباد على التأني في الامور ، فإن الاله القادر على خلق الكائنات في لمح البصر ، خلقها في ستة أيام (٦)

وقال الامام احمد(٧).... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
﴿ أقبلوا البشرى يا بني تميم ﴾ قالوا : قد بشرتنا فأعطنا ، قال : ﴿ أقبلوا البشرى يا أهل اليمن ﴾ قالوا : قد قبلنا ، قال : ﴿ فأتاني آت فقال يا عمران انحلت ناقتك

---

(٢) صفوة التفاسير جـ٢ صـ٤٥
(١) ابن كثير جـ٢ صـ٢٢ (٣) محاسن التأويل ٧/٢٧٠٨ (٤) القرطبي ٧/٢١٩
(٥) هود : ٧ (٦) صفوة التفاسير جـ٢ صـ٦ (٧) ابن كثير جـ٢ صـ٤١٨

من عقالها ، قال فخرجت في أثرها فلا أدرى ما كان بعدى .»

وهذا الحديث اخرجه كل من البخارى ومسلم بألفاظ كثيرة ، ومنها .. جئناك نسألك عن أول هذا الأمر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« كان الله ولم يكن شئ قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شئ ، ثم خلق السماوات والأرض .»

وفى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء .[1]

وقال الإمام أحمد[2] .... قال لقيط بن عامر بن المنتفق العقيلى (ابو رزين) .. أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق ؟ قال صلى الله عليه وسلم :
« كان فى عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك .»

وقال الربيع بن أنس : « وكان عرشه على الماء » فلما خلق السماوات والأرض ، قسم ذلك الماء قسمين ، فجعل نصفا تحت العرش وهو البحر المسجور[2]

وقال ابن عباس : إنما سمى العرش عرشا لارتفاعه .
وقال اسماعيل بن أبى خالد ، سمعت سعدا الطائى يقول : العرش ياقوتة حمراء .

---

(١) ابن كثير ج١ ص٤١٩ ، (٢) نفس المصدر والصفحة .

② يقول تعالى :
﴿ الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم أستوى على العرش ---- ﴾[1]

تبين هذه الآيه القضيه الكبرى ، قضيه الايمان بوجود الله ووحدانيته ، فمع سطوع الحجه ووضوحه ، كذب المشركون بالقرآن ، وجحدوا وحدانيه الرحمن ، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته تعالى ، وعجيب خلقه ، فى السماوات والأرض ، والشمس والقمر ، وسائر مخلوقات الله تعالى فى هذا الكون الفسيح البديع .

ويظن فريق من الناس ، أن السماوات ما هى إلا مأوى للأرواح والاشباح ، وربما تسكنها الملائكة وحدها ،

ومن وجهة نظر العلم ، ما السماوات التى تعلونا وترتفع فوق رؤوسنا سوى بناء هذا الكون من تجمعات النجوم وسائر الاجرام ، التى تخضع لنفس النظم والقوانين التى تخضع لها مجموعتنا الشمسيه بما فى ذلك الأرض ..

ومن حيث اللغه ، يطلق اسم سماء على كل ما علانا وأرتفع فوق رؤوسنا ، وعلى ذلك يكون سقف الأرض الذى يرتفع الى علو ألف كيلو متر فوق سطح الأرض عبر الفضاء الكونى بمثابة سماء لأهل الأرض ..

أيضا هذا السقف هو الغلاف الجوى الذى تمسكه الأرض وتحتفظ به ، وتحول دون تسربه الى خضم الفضاء الكونى بقبضه جاذبيتها الكبيرة ، بينما يندفع الهواء الى أعلى لكى ينطلق الى الفضاء الكونى .. لأن من خصائص الغازات الانتشار الى الفضاء الذى تتعرض له .

وتتساوى قوة أرتفاع الهواء الى أعلى مع قوة جذب الأرض الى أسفل ، فيظل الغلاف الجوى مرفوعا الى ما شاء الله .

---

(١) الرعد : ٢

أما القبة الزرقاء ، فهى ناجمة عن تشتت أشعة الشمس الزرقاء بوفرة وغزارة فى طبقات الهواء الكثيفة نسبياً قرب سطح الأرض الى علو ٢٠٠ كيلومتر .(١)

ويخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه ، أنه الذى بإذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد ، وتسخيره رفعها عن الأرض لاتنال ولا يدرك مداها ..

فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وماحولها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء ، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة المسير خمسمائة عام ، وسمكها خمسمائة عام ، وهكذا باقى السماوات ، كما قال الله تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن .﴾

وفى الحديث : ﴿ ما السماوات السبع وما فيهن وما بينهن من الكرسى إلا كحلقة ملقاه بأرض فلاة ، والكرسى فى العرش المجيد كتلك الحلقة فى تلك الفلاة .﴾

وفى رواية ﴿ والعرش لايقدر قدره إلا الله عزوجل .﴾ ..

وجاء عن بعض السلف .. ان مابين العرش الى الأرض مسيرة خمسين ألف سنه ، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنه ، وهو من ياقوتة حمراء ...(٢)

وقوله تعالى : ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ روى ابن عباس وغيره ، أنهم قالوا : لها عمد ولكن لاترى . فهى مرفوعة بغير عمد ترونها وهذا هو الأكمل فى القدرة (٣)

وفى شعر أمية بن أبى الصلت ، الذى آمن شعره وكفر قلبه كما ورد فى الحديث ، كما يروى لزيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه :

وقولا هل أأنت رفعت هذه ... بلا عمد أو فوق ذلك بانيا ؟ (٤)

---

(١) مع القرآن فى الكون : د . محمد جمال الدين الفندى . ص ١٨٧ (٢) ابن كثير ج٢ ص ٤٨٠

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٤) " " ص ٤٨١

٤- قال تعالى :

﴿ لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا ﴾[1]

يقول تعالى ، قل يا محمد - صلى الله عليه وسلم - لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه العابدين معه غيره ليقربهم اليه زلفى ، لو كان الامر كما يقولون ، وأنه معه آلهة تعبد لتقرب اليه وتشفع لديه ، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون اليه ويبتغون اليه الوسيله والقربه ..

فاعبدوه أنتم وحده ، كما يعبده من تدعونه من دونه ، ولا حاجه لكم الى معبود يكون واسطه بينكم وبينه ، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه ، بل يكرهه ويأباه ، وقد نهى عن ذلك على ألسنه جميع الرسل وأنبيائه ..

ثم نزه نفسه الكريمه وقدسها فقال : ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون ﴾ ..

٥- قال تعالى :

﴿ فتعالى الله الملك الحق لا اله إلا هو رب العرش الكريم ﴾[2]

اى تنزه وتقدس الله الكبير الجليل ، صاحب السلطان ، المتصرف فى ملكه بالايجاد والعدم ، والاحياء والافناء ، تنزه عن العبث والنقائص ، وعن أن يخلق شيئا سفها لأنه حكيم ، فلا رب سواه ولا خالق غيره

وهو خالق العرش العظيم ، وقد وصفه بالكريم لأن الرحمة والخير والبركة تنزل منه ، ولنسبته الى أكرم الاكرمين .[3]

ويقول ابن كثير[4] : ﴿ لا اله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ، ووصفه بحسن المنظر ، بهى الشكل ..

---

(١) الاسراء ٤٢ (٢) المؤمنون : ١١٦ (٣) صفوة التفاسير جـ١٨ ص٢٢٤

(٤) ابن كثير جـ٢ ص٤

٦- قال تعالى :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم . ﴾(١)

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ، ومن حوله من الملائكة بأنهم يسبحون بحمد ربهم ، اى يقرنون بين التسبيح الدال على نفى النقائص ، والتحميد المقتضى لاثبات صفات المدح .. وهم خاشعون له أذلاء بين يديه ﴿ ويؤمنون به ﴾ ..(٢)

فإن قلت ما فائدة قوله ﴿ ويؤمنون به ﴾ .. ولا يخفى أن حملة العرش وجميع الملائكة يؤمنون بالله ، فالجواب أن ذلك أظهر لفضيلة الايمان وشرف الترغيب فيه(٣)

﴿ يستغفرون للذين آمنوا ﴾ اى من أهل الأرض ممن آمن بالغيب ، فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ..

ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام ، كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب .. كما ثبت فى صحيح مسلم :

﴿ إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثله . ﴾

---

(٢) ابن كثير جـ٤ ص٧٢

(١) غافر ٧-٩ (٣) تفسير الكشاف ٤/١١٨

وعن أبن عباس رضى الله عنهما .. قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« صدق أمية بن الصلت فى شئ من شعره .» فقال

زحل وثور تحت رجل يمينه ∴ والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صدق .» .. فقال :

والشمس تطلع كل آخر ليلة ∴ حمراء يصبح لونها يتورد

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صدق .» -

ويقول أبن كثير (١) :
إن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية ، كما قال تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » -
وعن العباس بن عبد المطلب قال :
كنت بالبطحاء فى عصابة فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرت بهم سحابة فنظر إليها وقال : « ما تسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب ، قال : « والمزن » قالوا : والمزن ، قال : « والعنان » قالوا : والعنان ، قال : « هل تدرون بعد ما بين السماء والأرض ؟ » قالوا : لا ندرى ، قال : « بعد ما بينهما إما واحدة أو أثنتان أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك حتى عد سبع سماوات ، ثم فوق السماء السابعة بحر ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء وسماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء وسماء ، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء الى سماء ، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك .» - (٢)

---

(١) أبن كثير جـ٤ صـ ٧٢ (٢) نفس المصدر السابق والصفحة . وقال الترمذى حسن غريب -

وقال شهر بن حوشب رضى الله عنه [١]:

حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك .

ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا : ﴿ ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما ﴾ اى رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع اعمالهم واقوالهم وحركاتهم وسكناتهم . فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنابوا واقلعوا عما كانوا فيه واتبعوا ما أمرتهم من فعل الخيرات وترك المنكرات . ﴿ وقهم عذاب النار ﴾ .*

" وأدخلهم جنات النعيم والاقامة التى وعدتهم إياها ، وأدخل الصالحين من الآباء والازواج والاولاد فى جنات النعيم أيضا ليتم سرورهم بهم ..

قال ابن كثير : اى وأجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك اعينهم بالاجتماع فى الجنة بمنازل متجاورة [٢]

وقهم السيئات ، وهذا من تمام دعاء الملائكة ، اى احفظهم يارب من فعل المنكرات والفواحش التى توبقهم اصحابها .. وهذا هو الظفر العظيم الذى لاظفر مثله " [٣]

(١) ابن كثير جـ٤ صـ٧٣  (٢) مختصر ابن كثير ٢٣٦/٢  (٣) صفوة التفاسير جـ٤ صـ٩٥

⑦- قال تعالى :

﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين .﴾[1]

لما ذكر تعالى الحكمة فى أهل النار والجنة ، وأنه نزل كلاً فى المحل الذى يليق به ويصلح له وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور .. أخبر عن ملائكته انهم محدقون من حول العرش المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ، ويمجدونه ، ويعظمونه ، ويقدسونه ، وينزهونه عن النقائص والجور .. وقد فصل فى القضية ، وقضى الامر وحكم بالعدل ، ولهذا قال عز وجل ﴿ وقضى بينهم ﴾ بين الخلائق ﴿ بالحق ﴾

ونطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول الى قائل ، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد[2]

وقال المفسرون : القائل هم المؤمنون والكافرون ، المؤمنون بحمد الله على فضله ، والكافرون يحمدونه على عدله [3]

⑧ قال تعالى :

﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق .﴾[4]

وهو تعالى عظيم الشأن والسلطان ، صاحب الرفعة والمقام العالى ، صاحب العرش العظيم ، الذى هو أعظم المخلوقات ولا شئ يشبهه من مخلوقات الله [5]

ويقول ابن كثير : اخبر تعالى عن عظمته وكبريائه ، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها ، وقد ذكر ان العرش من ياقوتة حمراء ولا يعلم سعته إلا الله.[6]

(١) الزمر : ٧٥ (٢) تفسير ابن كثير ج٤ ص٦٦ (٣) صفوة التفاسير ج٤ ص٩٠
(٤) غافر : ١٥ (٥) صفوة التفاسير ج٤ ص٩٦ (٦) مختصر ابن كثير ٢٢٨/٣ .

٩- قال تعالى :

﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . يومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾(١)

يقول تعالى مخبرا عن أهوال يوم القيامة ، وأول ذلك نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا ما شاء الله ما ثم بعدها هذه النفخة ، وهى نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور .. وقد أكدها الله تعالى فى هذه الآية بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يحتاج الى تكرار ولا تأكيد ..(٢)

ويقول محمد على الصابونى ..(٣) :
فإذا نفخ اسرافيل فى الصور نفخة واحدة لخراب العالم ..
قال ابن عباس : هى النفخة الاولى التى يحصل عندها خراب الدنيا .

وفى هذا اليوم العصيب ، رفعت الأرض والجبال من أماكنها ، فضرب بعضها ببعض حتى تندك وتتفتت وتصير كثيبا مهيلا .. وفى هذا الحين قامت القيامة الكبرى ، وحدثت الداهية العظمى ، وانصدعت السماء فهى يومئذ ضعيفة مسترخية ، ليس فيها تماسك ولا صلابة ، والملائكة على اطرافها وجوانبها ..

قال المفسرون : وذلك لأن السماء مسكن الملائكة ، فإذا انشقت السماء وقفوا على أطرافها فزعا مما داخلهم من هول ذلك اليوم ، ومن عظمة ذى الجلال ، الكبير المتعال ..(٤)

﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾
قال ابن كثير ..(٥) :

---

(١) الحاقة : ١٣-١٨ (٢) تفسير ابن كثير جـ٤ صـ٤١٤ (٣) فى صفوة التفاسير جـ٩ صـ٤٢٦
(٤) صفوة التفاسير جـ٩ صـ٤٢٦ (٥) تفسير ابن كثير جـ٤ صـ٤١٤

أى يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ، ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش ، العرش العظيم أو العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة لفصل القضاء

وعن العباس بن عبد المطلب قال فى ذكر حملة العرش أنهم ثمانية أوعال ..

ويقول عبد الله بن عمرو : حملة العرش ثمانية ، ما بين موق أحدهم الى مؤخرة عينه مسيرة مائة عام ..

وعن جابر أنه قال .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أذن لى أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش ، بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام . ﴾

وقال ابن عباس : ثمانية صفوف ...(١)

﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾

أى فى ذلك اليوم الرهيب تعرضون على ملك الملوك ذى الجلال للحساب والجزاء ، لا يخفى عليه منكم احد ، ولا يغيب عنه سر من أسراركم ، لأنه العالم بالظواهر والسرائر والضمائر ..(٢)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الايدى ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله . ﴾(٣)

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ صـ٤١٥ (٢) صفوة التفاسير جـ١٩ صـ٤٢٧ (٣) رواه ابن ماجه ، ابن كثير جـ٤ صـ٤١٥

## أهم المراجع


١ القرآن الكريم .
٢ تفسير القرآن العظيم لابن كثير .
٣ صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى .
٤ تفسير القرطبى لأبى عبدالله أحمد الانصارى القرطبى
٥ تفسير الكشاف
٦ تفسير البحر المحيط
٧ التسهيل لعلوم التنزيل
٨ التفسير الكبير للرازى
٩ محاسن التأويل
١٠ حاشية شيخ زادة على البيضاوى .
١١ تفسير ابو السعود .
١٢ تفسير الخازن .
١٣ اعلام الموقعين لابن القيم
١٤ الحكم لابن عطاء السكندرى
١٥ تفسير الطبرى .
١٦ حاشية الجمل على الجلالين .
١٧ تفسير روح المعانى
١٨ مع القرآن فى الكون د. محمد جمال الدين الفندى .
١٩ شهداء الصحابة فى صدر الاسلام محمد فهمى عبدالوهاب .